القسم الرابع
الحياة الدينية والعقائدية

لنقف هنيهة عند معنى الدين والديان ، ففيه لابـــد تقريب للأذهان إلى ما لهذا اللفظ " الدين" من كبير فهم وعظيم مقصد ، واشتمال أمرٍ في الإنسان مرتبط بالله عز وجل .

دين : الديان : من أسماء الله عز وجل ، معناه الحكم ، والقاضي ، وسئل بعض السلف عـــن علي بن أبي طالب ﷺ ، فقال : كان ديان هذه الأمة بعد نبيها ، أي قاضيها وحاكمها والديان : القهار .. والديان : الله عز وجل ، والديان : القهار ، وقيل : الحاكم والقاضي وهو فعال من دان الناس : أي قهرهم على الطاعة . يقال : دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا ، ومنه شعر الأعشـــى الحرمازي يخاطب سيدنا رسول الله ﷺ : يا سيد الناس وديان العرب .

وفي حديث أبي طالب : قال له عليه السلام : " أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب أي تطيعهم وتخضع لهم ... " .

ودِنْتُ الرجل : حملته على ما يكـره ، ودَيَّنْتُ الرجل تديناً إذا وكلته إلى دينه . والـــدين : الحال. قال النضر بن شميل : سألت أعرابياً عن شيءفقال : لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك . والدين : ما يتدين به الرجل . والدين : السلطان . والدين : الورع . والدين : القهر . والدين : المعصية ، والدين : القهر . وفي حديث الخوارج : " يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ". يريد : أن دخولهم في الإسلام ثم خروجهم منه لم يتمسكوا منه بشيء كالسهم الـــذي دخـــل في الرمية ثم نفذ منها و لم يعلق به شيء منها .

ودين الرجل في القضاء وفيما بينه وبين الله : صدقة .

وفي الحديث الشريف قول الرسول ﷺ : " كان على دين قومه " ، قال ابن الأثير : ليس المراد به الشرك الذي كانوا عليه ، وإنما أراد أنه كان على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم عليه السلام . من الحج والنكاح والميراث وغير ذلك . وفي حديث الحج : كانت قريش ومن دان بدينهم : أي اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه ، واتخذ دينهم له دينا وعبادة . وفي حديث دعاء السفر : " أستودع الله دينك وأمانتك " ، جعل دينه وأمانته من الوقائع ، لأن السفر يصيب الإنسان فيـــه المشـــقة

والخوف، فيكون ذلك سبباً لإهمال بعض أمور الدين ، فدعا له بالمعونة والتوفيق . وأما الأمانة هاهنا فيريد بها أهل الرجل وماله ومن يخلفه عن سفره .. الخ [1] .

و (دان) دنيا ، وديانة ، خضع وذل ، وأطاع . ويقال : دان له . و ـ له منه : اقتص و ـ بكذا ـ اتخذه ديناً وتعبد به فهو دَيِّن .

(الدين) : الديانة . واسم لجميع ما يعبد به الله . والملة . و ـ الإسلام . و ـ الاعتقاد بالجنان ، والإقرار باللسان ، وعمل الجوارح بالأركان . و ـ السيرة . والعادة . و ـ الحال . و ـ الشأن . و ـ الورع . و ـ الحساب . و ـ الملك . و ـ السلطان . و ـ الحكم . و ـ القضاء . و ـ التدبير . ج : أدين ، وديون ، وأديان .

ويقال : قوم دَيْنٌ : أي دائنون .

" الدِّنْية " : الدَّينُ ـ والدِّين . و ـ العبادة . و ـ الطاعة .

" الديان " اسم من أسماء الله عز وجل . و ـ القاضي . و ـ الحاكم . و ـ المجازي بالخير والشر . و ـ الحاسب . و ـ القهار .. الخ [2] .

ونعني بالحياة الدينية هي النظرة إلى شعب من الشعوب في أي بقعة من بقاع الأرض ووصفه بما يمتاز به من ارتباط بالدين ، والتزام بأوامره ونواهيه ، وتأدية فرائضه وسننه والالتزام بنص الدين (الكتاب والسنة .. وما ينطوي تحتهما ، بالنسبة للإسلام) وبروح الدين الذي يناط به الاعتقاد والطاعة والإيمان بما وراء الغيب ، وتأدية العبادات من عدمها . وباعتبار الحديث عن خير أمة أخرجت للناس ، لالتزامها بالدين الإسلامي خاتم الديانات وجامعها وحافظها ، ومظهرها للناس ، فنود أن نبين أن أمة الإسلام على امتداد تواجدها في الأرض ومدى ارتباطها بهذا الدين .

و (عَقَدَ) من معانيها عقد لفلان على البلد : ولاه عليه ، وعقد ناصيته : غضب وتأهب للشر . وطرفي الحبل ونحوه وصل أحدهما بالآخر بعقدة تمسكها فأحكم وصلها والتاج فوق رأسه ، عصبه به . والبيع واليمين والعهد : أكده ، وقلبه على الشيء لزمه ، العَقْدُ : اتفاق بين طرفين يلتزم بمقتضاه كل منهما ما اتفقا عليه .

العَقِيدَةُ : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . و (في الدين) ما يقصد به الاعتقاد دون العمل . كعقيدة وجود الله جل وعلا ، وبعثة الرسل (ج) عقائد . المُعْتَقَد : العقيدة .. [3] .

---

(١) لسان العرب - ابن منظور - إعداد وتصنيف يوسف خياط - دار لسان العرب - بيروت ج١ ص ١٠٤٤- ١٠٤٥ .

(٢) المعجم الوسيط : أحمد حسن الزيات وآخرين - دار الدعوة - استنبول ١٩٨٨ ص ٣٠٧ ج١ .

(٣) انظر : المعجم الوسيط : أحمد حسن الزيات وآخرين - دار الدعوة - استنبول ص ٦١٤ ج٢ .

هناك مقياس لتدين أمة ، وصدق اعتقادها ، وإيمانها بالله وما أنزل على أنبيائه ومدى قيام هذه الأمة ـ على اختلاف أجناسها وأعمارها ـ بالالتزام بما عندها من شريعة أو عقيدة ، أو أوامر أو نواهٍ بما لديها من تراث ديني . والناس يقسمون إلى قسمين في هذا المجال على اختلاف مشاربهم ومنابتهم ونوازعهم الجغرافية وهم :

أ ـ أهل كتاب : وهم المسلمون أولاً ثم النصارى واليهود .

ب- عباد الوثن : وهم الذين يعبدون منحوتات لهم اعتبروها بمقام الآلهة وهم البوذيون والبراهميون في الصين وملحقاتها والهند ومهاجريها خارجها .

جـ المشركون : وهم الذين يعبدون رموزاً وتماثيل وأشجاراً وكواكب ومخلوقات وغير ذلك ، وينتشرون في استراليا وأفريقيا ، وبعض مناطق آسيا وأمريكا الشمالية والجنوبية من سكانها الأصليين كما أنه يندرج في مقاييس التدين :

١- كثرة المعابد وانتشارها في الأماكن التي يعيش فيها السكان .

٢- كثرة المترددين على المعابد لتأدية العبادات والطقوس المقررة في دياناتهم ومعتقداتهم .

٣- مدى تفاعل المعتقدات في النفوس والتزام الناس بها .

ومن هنا فإن حديثنا الآن ينطبق على المسلمين كافة في أي مكان ؛ باعتبار أنهم هم أصحاب الدين الحق الثابت الصحيح ؛ الذي لم يطرأ عليه تغيير أو تبديل في المعتقدات والكتب وخاصة القرآن الكريم ؛ الذي يعتبر الكتاب الوحيد من الكتب السماوية أو الأرضية الذي تحدى الناس والجن والخلائق على أن يأتوا بآيةٍ من مثله أولاً ، وبأن ينجحوا في مد أيديهم إليه بالتحريف والحذف والزيادة والنقصان . كما طالت أيدي البشر من أتباع الكتب السماوية السابقة له "التوراة والزبور والإنجيل " وأخبار الرسل وما أرسلوا إليه ، هذا بالنسبة للكتب السماوية . أما بالنسبة للهرطقات والوثنيات والشركيات فليس لدينا ما نقوله عنها إلاّ أنها موروثات غير بها الإنسان وبدل ، وعبد الناس مصلحيهم ورجال الدين عندهم ، واتخذوا المخلوقات آلهة من دون الله جل جلاله .

- أمة الإسلام التي اختارها الله تعالى من سائر الأمم في السابق والحاضر واللاحق ؛ لابد أن نلقي نظرة فاحصة على حال أفراد هذه الأمة التي وصفنا سابقاً انتشارها على كوكب الأرض .. لنرى المقاييس التي حددناها ومدى انطباقها على هذه الأمة كونها خير أمة أخرجت للناس . مع مسببات كونها صاحبة هذه الخيرية يقول تعالى : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا**

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(١٠٩)﴾ [آل عمران] .

نخلص من هذه الآيات إلى تميز واضح للمسلمين عن جميع أهل الكتاب الذين سبقوا الإسلام ؛ فالله تعالى عندما أمر أن تكون طائفة من المسلمين يدعون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حدد لهم سبيل هدايتهم لتكون تلك الأمة الخيرة ، مشيراً إلى عدم توفر الشروط المطلوبة لهذه الخيرية في أهل الكتاب الأول .. إنما انصبت الصفة على المسلمين دون غيرهم من الأمم السابقة أو اللاحقة كما سيرد .

ومناسبة هذه الآيات كالشرح لقوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ فشرح الاعتصام بحبل الله تعالى بقوله : ﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ وشرح : ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ بقوله : ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا**﴾ [1] أمرنا تعالى بالاعتصام بالقرآن والتمسك بالدين ، ونهانا عن التفرق والاختلاف . ثم بين سبيل الاعتصام بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهذه تذكر بالله وباليوم الآخر ، وترشد إلى الإسلام وتعصم من الزيغ والانحراف بقصد الحفاظ على وحدة الأمة ، وترشيد أبنائها ، وتكثير سوادها بالاتباع للذين يؤمنون بدعوة الإسلام . وتضامن الأفراد في كل ما هو حضاري يؤدي إلى القوة والتقدم والسمو .

روى مسلم وأحمد حديثاً مرفوعاً عن النعمان بن بشير هو : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" وروى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً " .

وبيان هذه الآيات الكريمات[2] : يأمر الله تعالى الأمة الإسلامية بأن يكون منها جماعة متخصصة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك الكمل هم المفلحون في الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٣ / ٢١ .

(٢) ما سبق من سورة آل عمران ١٠٤ - ١٠٩ .

وتخصص هذه الفئة بما ذكر لا يمنع كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً على كل فرد من أفراد الأمة بحسبه،كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله ﷺ :" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " وفي رواية : " وليس من وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " وروى أحمد والترمذي وابن ماجة عن حذيفة بن اليمان ﷺ أن النبي ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنَّهُ فلا يستجيب لكم " .

وكان الواحد من السلف الصالح لا يتوانى في هذا الواجب ، ولا يخشى في الله لومة لائم فقد خطب عمر على المنبر قائلاً : " إذا رأيتم فيَّ اعوجاجاً فقوموه ، فقام أحد رعاة الإبل وقال : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا " .

ولا تكونوا أيها المؤمنون كأهل الكتاب الذين تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً ، واختلفوا اختلافاً كثيراً من بعد ما جاءهم الأدلة الواضحات التي تهديهم إلى السبيل او اتبعوها ، لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاستحقوا العذاب العظيم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيجعل بأسهم بينهم شديداً ، ويذيقهم الخزي والنكال ، وأما في الآخرة ففي جهنم هم فيها خالدون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى :﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)** ﴾ [المائدة] .

وهذا الوعيد لأهل الكتاب يقابل الوعد بالفلاح والنجاح والفوز لأهل الإيمان ، والاختلاف المنهي عنه إنما هو الاختلاف في أصول الدين وتحكيم الهوى والمصلحة الشخصية في القضايا العامة، أما الاختلاف بالأمور المذهبية والاجتهادات الجزئية ، كاختلاف المذاهب في كثير من تفاصيل العبادات والمعاملات ، فليس مذموماً لتعدد المفاهيم المستوحاة من النص القرآني ، وتعدد أفعال النبي ﷺ وكيفية ثبوت الأخبار والروايات .

وزمان العذاب للكفار هو يوم القيامة . ويوم تبيض وجوه وتشرق وتُسر وجوه المؤمنين كما في آية أخرى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [القيامة] .

وتسود وجوه المختلفين الذين لم يتواصوا بالحق والصبر من أهل الكتاب والمنافقين حينما يرون ما أعد لهم من العذاب الدائم . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)** ﴾ [القيامة] وقوله تعالى : ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)**

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس] وقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

ثم أوضح الله مصير الفريقين، فيبين سوء حال الفريق الثاني، ثم حال الفريق الأول على طريقة اللف والنشر المشوش. أما الذين اسودت وجوههم بسبب تفرقهم واختلافهم فيوبخهم الله تعالى ويؤنبهم بقوله: أكفرتم بالرسول محمد بعد إيمانكم به؟ فقد كنتم على علم ببعثته، ولديكم أوصافه والبشارة به، ولكن كفرتم به حسداً وحقداً. فكان جزاؤكم أن تذوقوا العذاب بكفركم.

وأما الذين ابيضت وجوههم باتحاد الكلمة، وعدم التفرق في الدين، فهم خالدون في رحمة الله أي ماكثون في الجنة أبداً، لا يبغون عنها حولاً.

هذه الآيات، آيات الله وحججه وبياناته نتلوها عليك يا محمد مقررة ما هو الحق الثابت الذي لا شبهة فيه، كاشفة حقيقة الأمر في الدنيا والآخرة.

ومن هذه الآيات نستدل:

أولاً: إن الدعوة إلى الإسلام ونشرها في آفاق العالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الإسلام الكفائية لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾ [التوبة].

ويجب أن يكون الدعاة علماء بما يدعون الناس إليه. وقائمين بفرائض الدين، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج].

والسبب أن الداعية هو القدوة الحسنة والمثل الصالح الذي يحتذي به ويقلده الآخرون ويتأثرون به، وتحليل تلك الضوابط يتجلى في الشروط الآتية المطلوبة في الدعاة:

١- العلم بالقرآن والسنة والسيرة النبوية وسيرة الراشدين.

٢- تعلم لغة القوم الذين يراد دعوتهم إلى الدين. إذ يتعذر تحقيق الغاية بدون ذلك. وقد أمر النبي ﷺ بعض الصحابة بتعلم العبرية لمحاورة اليهود.

٣- معرفة الثقافة الحديثة والعلوم العامة وأحوال الأقوام وأخلاقهم وطبائعهم والملل والنحل، وشبهات التيارات والمبادئ الاقتصادية والاجتماعية السائدة في العالم المعاصر. وموقف الإسلام منها.

ثانياً : إن التفرق في الدين وسياسة الأمة العامة أمر حرام منكر عظيم ، مؤذن بتدمير المصلحة العامة والقضاء على وجود الدولة المسلمة والأمة المؤمنة ، وتوعد القرآن الكريم المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين كما في قوله تعالى : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** (٣٢) ﴾ [الروم] وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (١٥٩) ﴾ [الأنعام] ومن خرج عن حدود الدين ومقاصده كان ظالماً ، ومن لازم الظلم كان كافراً . كما قال تعالى : ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٢٥٤) ﴾ [البقرة] .

ومن ترك الاعتصام بالقرآن والإسلام ورد الأمر المتنازع فيه إلى غير كتاب الله والسنة المطهرة كان أيضاً من الكافرين .

هذا والاختلاف المحظور إنما هو الاختلاف في العقيدة وأصول الدين . وأما اختلاف الفقهاء في الفروع الاجتهادية فهو محمود غير مذموم ومن يسر الشريعة .

ثالثاً : إن أهل الطاعة لله عز وجل والوفاء بعهده هم الذين تبيض وجوههم وتُسَرُّ يوم القيامة ولهم الخلود في الجنة ودار الكرامة ، جعلنا الله منهم وجنبنا الضلالة بعد الهدى .

وأما أهل المعصية الذين كفروا بعد الإيمان فلهم سوء العذاب بسبب كفرهم ، وكل من بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه ، ولم يأذن به الله فهو من المسودي الوجوه ، وأشدهم طرداً وإبعاداً من رحمة الله ، فقد خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم . وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع ، ولا يخلد في النار إلاّ كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة من خردل أو ذرة من إيمان .

رابعاً : كل ما في الكون وكل ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى وعبيد له ، يتصرف بهم كيف يشاء إلاّ ما فيه الحكمة والخير ومصلحة العباد ، فهو قادر على كل شيء وغني عن الظلم، لكون كل شيء في قبضته وتصرفه .

فلا يصح لأحدٍ من الخلق أن يسأل غير الله أو يعبد غير الله ، وعليهم أن يسألوه ويعبدوه ولا يعبدون غيره [1] .

وهكذا بين الله تعالى للناس الطريق الذي يريده للأزمنة الخيرة ، ولجماعة المؤمنين الصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والذين تخشع قلوبهم لذكر الله أولئك الذين رضي الله

---

(١) التفسير المنير ٣٢ – ٣٧ بتصرف ج٤ .

عنهم ، وأولئك الذين اصطفى الله من عباده ليقيموا شرعه ، ويلتزموا بحدود ما أمر ويبتعدون عما نهى . كما أنه حدد للذين لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن أرسل لهم الرسل ، وبين لهم الحق ، وأنذرهم من عذابه الشديد ، وحملهم الأمانة ، فزاغوا وانحرفوا ، وضلوا ، وقتلوا الأنبياء واستبدلوا أمر الله بهوى أنفسهم ، ولم يؤمنوا بعد ذلك بالرسول محمد وبالرسالة الخاتمة ، وليس الأمر كلهم جميعاً ، فإن القليل منهم قد آمنوا وأسلموا ، وعرفوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق المبين ،فما كان الله تعالى ليضيع إيمانهم أو يشمل قلتهم المؤمنة مع كثرتهم الفاسقة الضالة ، وأوضح الله تعالى أمر الفئتين أولئك الذين لم يكونوا أمة وإنما كانوا أفراداً ، ولم يصل الأمر بهم إلى أن يشكلوا القوة الإيمانية المطلوبة أمة مؤمنة – كما سيرد لاحقاً – ولكن الله تعالى أشار في كثير من الموقف إلى أحوال هؤلاء . قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (١٩٩) ﴾ [آل عمران] .

﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه كانوا يهوداً فأسلموا [1] . وقيل : في النجاشي فإنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال ﷺ لأصحابه : "اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم" . فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له . فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلي على نصراني حبشي ، ولم يره قط ، وليس على دينه فأنزل الله هذه الآية [1] : ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ** ﴾ من القرآن : ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ من الكتابين : ﴿ **خَاشِعِينَ لِلَّهِ** ﴾ أي خاضعين له من خوف عذابه ، ورجاء ثوابه ﴿ **لَا يَشْتَرُونَ** ﴾ لا يأخذون ﴿ **بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ المكتوبة في التوراة والإنجيل من نعت النبي ﷺ ﴿ **ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ أي عرضاً يسيراً من حطام الدنيا خوفاً على الرئاسة ﴿ **أُولَئِكَ**﴾ أي أهل هذه الصفة ﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ** ﴾ أي المختص بهم الموعود لهم ﴿ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ نصب على الحال ، والمراد به التشريف ﴿ **سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء ، من غير حاجة إلى تأمل وكتب يد والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول إليهم . فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء [2] .

وهذا التوضيح الجلي في آيات الله لفئة المؤمنين التي شكلت الأمة الخيرة ، وللأفراد القلائل من أهل الكتاب الذين آمنوا ولعموم الآخرين الذين فسقوا وخاصة من تولوا كبر الكفر والنفاق من

---

(١) ورد في الأصل : كانوا نصارى فأسلموا والحقيقة أنهم كانوا يهوداً فأسلموا .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري ، وانظر : الدر المنثور للسيوطي ٢ / ١١٢

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان – الشيخ إبراهيم حقي البروسوي – اختصار وتحقيق الشيخ علي الصابوني – دار العلم – دمشق ط٢ ١٤٠٨هـ – ١٩٨٩م ج١ ص ٣١٠ .

اليهود خاصة ـ استبعدوا عن الخيرية التي حص الله تعالى بها أمة الإسلام في القديم والحاضر والمستقبل ، لقيام المسلمين دون سواهم بحق الله تعالى على مر الأزمان والعصور وليستحقوا بذلك هذا الوصف الخالد الذي سيرد في الآية التالية قال تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)[1] لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١١١)[2] ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)** ﴾ [آل عمران] .

﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ :

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة ، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية إنما ينبغي دائماً أن تعطي هذه الأمم مما لديها ، وأن تكون لديها دائماً ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها ، وتحتمه عليها غاية وجودها ، واجبها أن تكون في الطليعة دائماً ، وفي مركز القيادة دائماً ، وهذا المركز تبعاته ، فهو لا يؤخذ ادعاء ، ولا يسلم لها به إلاّ أن تكون هي أهلاً له . وهي بتصورها الاعتقادي ، وبنظامها الاجتماعي أهل له ، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي ، ولعمارتها للأرض ـ قياماً بحق الخلافة ـ أهلاً له كذلك . ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير . ويدفعها إلى السبق في كل مجال . لو أنها تتبعه وتلتزم به ، وتدرك مقتضياته وتكاليفه .

وفي أول مقتضيات هذا المكان ، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي خير أمة أخرجت للناس ، لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيرا ـ وليس توزيع

---

(١) سبب نزول هذه الآية (١١٠) قال عكرمة ومقاتل : نزلت في ابن مسعود وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم : إن ديننا خير مما تدعونا إليه ، ونحن خير وأفضل منكم ، فأنزل الله تعالى الآية .

(٢) وهذه الآية قال مقاتل : إن رؤوس اليهود وهم كعب ويحيى والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر ابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وهم أسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون : " نحن أبناء الله وأحباؤه " كلا : إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك ، إنه التعرض للشر والتحريض على الخير ، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد . وكل هذا متعب وشاق . ولكنه ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ، ولتحقيق الصورة التي يحب الله أن تكون عليها الحياة .

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي ، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل ، ولابد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر ، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه . وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون ، ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية . ومن الباعث على إرضاء الله ، وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد . ومن سلطان الله في الضمائر ، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد . ثم لابد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر أن يمضوا في هذا الطريق الشاق ، ويحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته . ويواجهون طاغوت الشهوة في عراقتها وشدتها ويواجهون هبوط الأرواح ، وكل العزائم ، وثقلة المطامع ، وزادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان ، وسندهم هو الله وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفذ ، وكل عدة سوى عدة الإيمان ثقل ، وكل سند غير سند الله ينهار ..

وقد سيق في هذا السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها . ليدلها على أنها لا توجد وجوداً حقيقياً إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني ، فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ مع الإيمان بالله ـ فهي موجودة وهي مسلمة وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة، وغير متحققة فيها صفة الإسلام .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة ، وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول ﷺ وتوجيهاته نقتطف بعضاً منها:

عن أبي سعيد الخدري - ﷺ - قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (أخرجه مسلم) .

وعن ابن مسعود - ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض . ولعنهم على لسان داود وسليمان وعيسى ابن مريم ثم جلس - وكان متكئاً - فقال : ألا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً " أخرجه أبو داود والترمذي .. أي تعطفوهم وتردوهم .

وعن حذيفة - ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم . (أخرجه الترمذي) .

وعن عرس بن عمير الكندي - ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كمن شهدها " (أخرجه أبو داود) .

وعن أبي سعيد الخدري - ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " (أخرجه أبو داود والترمذي) .

وعن جابر بن عبد الله - ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : " سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه ، فقتله " (رواه الحاكم والضياء عن جابر ﷺ) .

وغيرها كثير وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم ، وضروراتها لهذا المجتمع أيضاً ، وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة ، وهي إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته [1] .

وفي هذه الآيات يخبر الله تعالى عن الأمة الإسلامية بأنها خير الأمم في الوجود الآن ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله إيماناً صحيحاً صادقاً كاملاً وإنما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان لأنهما أولى على بيان فضل المسلمين على غيرهم ، ولأن الإيمان

---

[1] انظر : في ظلال القرآن - سيد قطب، مجلد ١ ص ٤٤٧ - ٤٤٨. دار الشروق ، بيروت ط شرعية ١٦ - ١٩٩٠ م .

يدعيه غيرهم . وتظل الخيرية والفضلية لهذه الأمة ما دامت تؤمن بالله حق الإيمان وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وأما الأمم الأخرى فقد غلب عليهم تشويه حقيقة الإيمان ، وشاع فيهم الشر والفساد فلا يؤمنون إيماناً صحيحاً ، ولا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر .

والإيمان المطلوب : هو الموصوف بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** (١٥) ﴾ [الحجرات] .

وقوله أيضاً :﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٢)﴾ [الأنفال] .

وفي قوله : (**تؤمنون بالله**) جعل الإيمان بكل ما يجب الإيمان به إيماناً بالله ، لأن من آمن ببعض ما يجب الإيمان به من رسول أو كتاب أو بعث أو إحسان أو عقاب أو ثواب أو غير ذلك ، لم يعقد إيمانه ، فكأنه غير مؤمن بالله كما قال تعالى :﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا** (١٥٠) **أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** (١٥١)﴾ [النساء] والدليل عليه قوله تعالى : ﴿**وَلَو آمَنَ أَهْلُ الكتاب** ﴾ مع إيمانهم بالله ، لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه : لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام ، حباً للرياسة ، واستتباع العوام ، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والاتباع ، وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوه على الإيمان من إيتاء الأجر مرتين .

هذه المقومات والأوصاف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان الحق بالله وبعناصر الإيمان الأخرى هي سبب الفضيلة والخيرية ، ولا تثبت للأمة إلا بمحافظتها على هذه الأصول الثلاثة . روى ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها ، رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية : ﴿ **كُنْتُم خَيرَ أُمَةٍ أُخرِجت لِلنَّاس**﴾ ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة : ٧٩] .

ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم ، فقال : ولو آمنوا بما أنزل على محمد لكان خيراً لهم ، إذ هم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، ويؤمنون ببعض الرسل كموسى وعيسى ويكفرون بمحمد ، مع أن كتبهم تتضمن البشارة بمحمد وصفته !

إلاّ أن هذا الذم ليس كلياً ولا جماعياً شاملاً ، ولذا استطرد الله تعالى فذكر أن بعض أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والنجاشي ورهطه مؤمنون إيماناً حقاً ، لكن أكثرهم فاسقون خارجون عن حدود دينهم وكتبهم ، متمردون في الكفر ، فقليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان . ومرة يعبر الله تعالى بالأكثر كما هنا ، وكما في قوله تعالى عن بني إسرائيل :﴿ **فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا** (٤٦) ﴾ [النساء] وتارة يعبر بالكثير ، كما في قوله عن النصارى واليهود : ﴿ **مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** (٦٦) ﴾ [المائدة] .

ويكثر الفسق عادة بعد طول الأمد على ظهور الدين ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** (١٦) ﴾ [الحديد] .

ثم أخبر الله تعالى عباده المؤمنين وبشرهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب ، فذكر أن هؤلاء الكافرين الفاسقين لن يلحقوا بكم إلاّ ضرراً بسيطاً كالسب والهجاء والقواعد باللسان ومحاولة الصد عن دين الله ، والطعن في الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص والطعن بمحمد ﷺ كما يفعل المبشرون اليوم .

وإذ يقاتلوكم ينهزموا أمامكم ، ولا يُنصرون عليك أبداً ما داموا على فسقهم ودمتم على خيريتكم بالحفاظ على الأصول الثلاثة ، وقد تحققت لسلف أمتنا هذه البشارات الثلاث من أخبار الغيب ، فانهزم يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر .

وتحقيق مثل هذه الانتصارات مرهون بنصر دين الله ، كما قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** (٧)﴾ [محمد] وبالحفاظ أيضاً على الأصول الثلاثة المذكورة هنا وفي آيات أخرى مثل قوله تعالى في وصف المؤمنين المجاهدين : ﴿**الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾ [التوبة : ١١٢] .

والخلاصة أن النصر ليس هبة تمنح كما يتوقع بعض المخدوعين ، وإنما هو مشروط بالإتيان بمقومات دينية أساسية . فما دمنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله إيماناً صحيحاً . تحقق لنا النصر والسيادة والعزة ، وما داموا هم فاسقين خارجين عن حدود الله والطاعة والإيمان . ظلوا أذلة مقهورين .

والله تعالى ألصق بهم الذل والهوان أبداً أينما كانوا ، لا ينعمون بأمن ولا استقرار إلاّ بعهدين ، عهد الله وعهد الناس ، أما عهد الله فهو ما قررته الشريعة لهم من الأمان وتحريم الإيذاء والمساواة في الحقوق والقضاء ؛ إذا تم لهم عقد الذمة وفرض الجزية وإلزامهم أحكام الملة .

وأما عهد الناس ، فهو ما يصدر لهم من الأمان كالمهادن والمعاهد والأسير ؛ إذا أمنه أحد المسلمين ولو امرأة . وكذا التاجر الذي يتعامل معه في داخل البلاد أو على الحدود الخارجية لتبادل المنافع والصنايع والتجارات ، ومثل ما نجده من الحماية الثابتة لليهود في فلسطين سواء من أمريكا وأوربا وروسيا وغيرها من الدول الكبرى .

والله تعالى أيضاً ألزمهم غضباً منه فالتزموه ، واستوجبوه واستحقوه ، وأحاط بهم المسكنة والصغار إحاطة المكان بما فيه ، فهم تابعون أذلاء لغيرهم ، دائمون في الذل والحاجة والتبعة لغيرهم، متفرقون في أقطار الأرض على قلتهم ، وسيظلون كذلك بالرغم من محاولاتهم المستميتة في التجمع والاستيطان والاستقرار في الأراضي المحتلة في فلسطين ، بالرغم من غناهم واعتمادهم على جمع المال والسيطرة على اقتصاديات العالم .

ثم بين الله تعالى سبب كل ذلك وعلته من ضرب الذلة والمسكنة والبَوْءَ بسخط الله عليهم وهو كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم ، وبدائع من الكيد والبغي والحسد ، مع اعتقادهم أنهم على غير حق فيما يرتكبونه من جريمة قتل أناس يقولون : ربنا الله ، وفي هذا غاية التشنيع عليهم ، والتوبيخ لهم .

وما جرأهم على ذلك ، وما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله ، إلا كثرة المعاصي لأوامر الله ، والانغماس الدائم في المعصية ، والاعتداء على شرع الله وحدوده . فمن اعتاد العصيان، وانتهك حرمات الله ، هان عليه كل شيء حرام ومنكر في الحياة .

والتشنيع على اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وتوجيه اللوم لهم على الكفر ، وقتل الأنبياء مع أنه صدر من أسلافهم ، إنما كان لأنهم منتسبون إليهم ، متكافلون متعاطفون معهم ، راضون بأفعالهم، سائرون على منهجهم ، فإنهم حاولوا أيضاً قتل النبي ﷺ مراراً [1] .

قوله تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ فيه ثلاث مسائل كما يقول القرطبي [2] :

الأولى : روى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ قال : " أنتم تُتِمُّون سبعين أمة أنتم خيرها

---

(١) انظر : التفسير المنير ج٤ ص ٤٠ فما بعد .

(٢) الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – دار إحياء التراث العربي ، بيروت ج٤ ص ١٧٠ فما بعد .

وأكرمها عند الله " وقال : هذا حديث حسن ، وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بدراً وشهدوا الحديبية . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمة محمد ﷺ ، يعني الصالحين منهم وأهل الفضل ، وهم الشهداء على الناس يوم القيامة . وقال مجاهد : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ على الشرائط المذكورة في الآية . وقيل : معناه : ﴿ كُنْتُمْ ﴾ في اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مذ آمنتم خير أمة . وقيل : جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي ﷺ وأمته. فالمعنى : كنتم عند من تقدمكم من أهل الكتاب خير أمة . وقال الأخفش : يريد أهل أمة ، أي خير دين . وأنشد :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة [1] وهو طائع

وقيل : هي كان التامَّة ، والمعنى : خلقتم ووجدتم خير أمةٍ " فخير أمة " حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى : أنتم خير أمة وأنشد سيبويه :

وجيرانٌ لنا كانوا كرامٌ [2] .

وقول الله تعالى : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) ﴾ [مريم] وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف : ٨٦] وقال في موضع آخر : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وروى سفيان عن ميسرة الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة " كنتم خير أمة أخرجت للناس " قال : تجرون الناس بالسلاسل إلى الإسلام ، قال النحاس : والتقدير على : كنتم للناس خير أمة . وعلى قول مجاهد : كنتم خير أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وقيل : إن صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى ، فقيل : هذا لأصحاب رسول الله ﷺ ، كما قال ﷺ : " خير الناس قرني " أي الذي بعثت فيه .

الثانية : وإذا ثبت بنص التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم ؛ فقد روى الأئمة من حديث عمران ابن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " . وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل مما بعدهم وإلى هذا ذهب معظم العلماء . وأن من صحب النبي ﷺ ورآه ولو مرة في عمره أفضل ممن يأتي بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل .

---

(١) البيت للنابغة الذبياني ، أمة بالضم وبالكسر : ذو أمة : ذو دين وذو استقامة . والأمة : النعمة .

(٢) هذا عجز بيت للفرزدق ، وصدره : فكيف إذا رأيت ديار قوم .

وذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : " خير الناس قرني " ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين قام عليهم أو على بعضهم الحدود . وقال لهم : ما تقولون في السارق والشارب والزاني . وقال مواجهة لمن هو في قرنه : " لا تسبوا أصحابي " وقال لخالد بن الوليد في عمار : " لا تسب من هو خير منك " وروى أبو أمامة أن النبي ﷺ قال : " طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى - سبع مرات - لمن لم يرني وآمن بي " وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال : " أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً ؟ " قلنا : الملائكة . قال : " وحق لهم بل غيرهم " قلنا : الأنبياء ، قال : " وحق لهم ، بل غيرهم " ثم قال رسول الله ﷺ : " أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني يجدون ورقاً فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيماناً " وروى صالح بن جبير عن أبي جمعة قال : قلنا : يا رسول الله . هل أحد خير منا ؟ قال : " نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتاباً بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بي ولم يروني " .

وقال أبو عمر : وأبو جمعة له صحبه واسمه حبيب بن سباع ، وصالح بن جبير من ثقات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخشني عن النبي ﷺ أنه قال : " إن أمامكم أياماً الصابر فيها على دينه كالقابض على الجمر للعامل فيها أجر خمسين رجلاً يعمل مثل عمله " قيل : يا رسول الله منهم؟ قال : " بل منكم " قال أبو عمر : وهذه اللفظة " بل منكم " قد سكت عنها بعض المحدثين فلم يذكرها وقال عمر بن الخطاب : من فعل مثل فعلكم كان مثلكم . ولا تعارض بين الأحاديث لأن الأول على الخصوص . والله الموفق .

وقد قيل في توجيه أحاديث هذا الباب : أن قرنه إنما أفضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار ، وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشر والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غرباء ، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم ، ومما يشهد لهذا قوله عليه السلام : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء " ويشهد له أيضاً حديث أبي ثعلبة ويشهد له أيضاً قوله ﷺ :" أمتي كالمطر لا يدري أوله خيرٌ أم آخره " [1] .

---

(١) ذكره أبو داود الطيالسي (٢٠٦٣، ٢٠٦٣) ، وأبو عيسى الترمذي (٢٨٦٩) ، ورواه هشام بن عبد الله الرازي عن مالك عن الزهري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ: " مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره " وذكره الدارقطني في مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقة لا يختلفون في ذلك .

وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبد الله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها ؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر ؛ فأنت أفضل من عمر ؛ لأن زمانك ليس كزمان عمر ، ولا رجالك كرجال عمر ، قال : وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم ، وقد عارض بعض الجلة من العلماء قوله ﷺ : " خير الناس قرني ... " بقوله ﷺ : " خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله " قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها . والمعنى في ذلك ما تقدم ذكره من الإيمان والعمل الصالح في الزمان الفاسد الذي يرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهرج ، ويُذَلُّ المؤمن ويُعَزُّ الفاجر ويعود الدين غريباً ، ويكون القائم فيه كالقابض على الجمر . فيستوي حينئذ أول هذه الأمة بآخرها في فضل العمل .. إلاّ أهل بدر والحديبية . ومن تدبر آثار هذا الباب بان له الصواب ، والله يؤتي فضله من يشاء .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** ﴾ مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به ، فإذا تركوا التغيير وتواطؤوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم. وكان ذلك سبباً لهلاكهم . وقد تقدم الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ﴿ **وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ وقد سبق الحديث في علو الإيمان ورفعة المؤمنين ، وتوجب التزود به لأنه هو المقياس الذي يفرق به أتباعه عن الكافر ، وبه تسمو خيرية الأمة وعلو المؤمنين] [1] .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ** (١١٠) ﴾ [آل عمران] أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبي ﷺ خيرٌ لهم وأخبر أن منهم مؤمناً وفاسقاً وأن الفاسق أكثر .. انتهى [2] .

ووعد الله المؤمنين ورسوله ﷺ أن أهل الكتاب لا يغلبونهم ، وأنهم منصورون عليهم ، لا يناهم منهم أذى إلاّ بالافتراء والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين .

وفي هذه الآية معجزة للنبي ﷺ لأن من قاتله من يهود انهزموا وولوا الأدبار ، وسبب الغضب من الله على اليهود وإلصاق صفة الذل والهوان أينما وجدوا هو كفرهم بآيات الله . ومنه عدم إيمانهم بالقرآن والإسلام . وقتلهم الأنبياء ظلماً وعدواناً ، ومنه محاولة قتل النبي ﷺ وتأليب المشركين عليه ، وتحريضهم على قتاله واستئصال شأفة المسلمين إلى الأبد . كما حدث في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة ، وغزوة الأحزاب (الخندق) في السنة الخامسة ، وغير ذلك من ألوان العصيان والاعتداء [3] .

---

(١) ما بين قوسين [ ] زيادة عن الأصل .

(٢) انظر أيضاً - التفسير المنير ج٤ ص ٤٤ – ٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٥ – ٤٦ ج ٤ .

إن التوسع في شرح هـذه الآيات والبحث في أسباب النزول،وما جرى في عهد النبي ﷺ من صدام مع أهل الكتاب"كانوا من اليهود"ومن ثم ما جرى من صدام مع الروم " كانوا نصارى " وانتصار المسلمين الساحق ابتداء من المعارك المحدودة بيوم أو أكثر" بني قينقاع ،بني النضير،بني قريظة ، ويهود خيبر " وهم من اليهود ، وانطلاقاً إلى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي مع الروم وإخراجهم من بلاد الشام وبعض بلاد الترك ومصر وشمال أفريقيا ، وهزائمهم المتلاحقة إلى أن أيد الله تعالى جنده : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ورفع شأنهم وأعطاهم من النصر ما داموا قانعين على دينه ، عاملين بالشروط المطلوبة لتحقيق النصر ، ولوراثة الأرض وتحقيق إرادة الله تعالى بتوريث الأرض للمتقين .

أما اليوم فإن أمر المسلمين غير ما هو ، فأمة الإسلام " خير الأمم " تنقسم إلى دول وحكومات وممالك ورئاسات ، وإمارات ، والأكثر من هذه المسميات غير قائمة والإسلام لا تحكم مبادئه ، وتدافع عنه ، وتدفع الأذى والشر عنه ، فإن أهل الكتاب قد سادوا بأشكال وألوان مختلفة على هذه الدول ، وأذلوها وحقروها ، فتمكن اليهود من جزء غال ، ومقدسات هي التالية مباشرة بعد مكة والمدينة ، واستحصلوا على القوة والعزة والتأييد المطلق من أهل الكتاب الآخرين " النصارى " أينما حلوا وأينما وجدوا . وخاصة أن النصارى الذين استأثروا بحكم دول الإسلام بالطرق المختلفة – السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية – أخضعوا المسلمين في دولهم واستذلوهم . وحاول المسلمون ردّ عدوان أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأسلحة خفيفة ، بدائية وبكل ما تحقق لهم إلاّ سلاح الإيمان الذي أعزهم الله تعالى به وجعل فيهم الخيرية إلى يوم الدين . كما أنهم تقطعت بينهم الوصال ، وأعلنوا الحرب على بعضهم البعض ، وسادت وعادت الهرطقات والبدع والانحراف عن دين الله وزوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وهذا ما حقق قول رسول الله ﷺ . وهي معجزة من المعجزات التي تحققت في هذا العصر . فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها " قال : قلنا : يا رسول الله .. أمن قلة بنا يومئذٍ ؟ قال : " أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل تنتزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن " قال : قلنا : وما الوهن .. ؟ قال : " حب الدنيا ، وكراهية الموت " [1] .

---

[1] رواه الإمام أحمد في المسند ج ٣٧ رقم ٢٢٣٩٧ عن أبي النضر ، حدثنا المبارك حدثنا مرزوق أبو عبد الله الحمصي ، أخبرنا أبو أسماء الرحبي عن ثوبان . إسناده حسن . أبو النضر : هو هاشم بن القاسم الليثي مولاهم ، ومبارك : هو أبو فضالة وأبو أسماء الرحبي : هو عمر بن مرثد . وأخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٥) ، والطبراني في (الكبير) ١٤٥٢ ، وأبو نعيم في الحلية ١ / ١٨٢ من طريق سعيد بن سليمان الواسطي عن مبارك بن فضالة ، به و لم يسق الطبراني لفظه ، وأخرجه أبو داود والطبراني والبيهقي ، وابن عساكر ، وابن الأعرابي، والطيالسي وابن أبي شعبة والبخاري في التاريخ الكبير .

والغثاء : بضم الغين المعجمة ومثلثه : ما يحمله السيل من زبد ووسخ وغيره .

وبذلك فقد فقدت أمة الإسلام اليوم وحدتها وتماسكها ومنهجيتها ، ومرجعيتها وأضحت دولاً ودويلات وأشباه دويلات كل لها استقلاليتها وذاتيتها ، وتوليتها قبال دول أيضاً ذات قوة وذات بأس ، أمم " كالصين " ودول أوربا وروسيا ومجمع ثقافات وأديان ولغات كالولايات المتحدة والهند وهذه الدول ذات تجمع بشري كبير ، وإمكانات مادية هائلة ، وأفكار ومبادئ تلتزم بها وتدافع عنها ، وحضارات مادية قوية ، وعلوم واختراعات وتطور تقني كبير .. فتداعت على أمة الإسلام تمزيقاً وقهراً وسلباً للخيرات والإرادة ، وكلها على اختلاف منابتها ومشاربها وتوجهاتها اتفقت على إذلال المسلمين وعلى قهرهم وتأخرهم ، وإشغالهم بحروب وتحديات لم تتمكن واحدة من دول الإسلام أكبرها " إندونيسيا ٢٣٠ مليون " وأصغرها " بروناي " ٢٥٠ ألف أن تخرج من المرسوم لها ، لأنها ارتبطت بمواثيق ومعاهدات ، وقوانين ، وسلبت مقدراتها وأضعفت جيوشها، وحكمها العملاء الذين قبلوا حرب الإسلام ، أو ارتضوا إذلاله ، وحاربوا الدعاة إلى الله تعالى وعملوا بالقوانين والدساتير الكافرة ومن أغنى هذه الدول السعودية مثلاً ٢٥ مليون ، وجزر القمر أفقرها / ٢٠٠ / ألف نسمة كلها أضحت في رباط قبضته بيد أعداء الإسلام. وأكبر تجمع إسلامي في مجتمع غير مسلم ، لم يعط بعض ما يعطي المخلوقات غير العاقلة من المعاملة والمساواة والتسامح حتى أمام القانون ١٥٠ مليون مسلم / ١٥٠٠ مليون بوذي في الصين ١٠ % من السكان و١٥٠ مليون مسلم / ٨٥٠ مليون هندوسي ووثني وتعادل ١٨ % وهكذا فإن حال المسلمين في القانون الدولي - سنتطرق إليه لاحقاً - لم يعط أمة الإسلام الوحدة والمرجعية والمنهج وحمل هم هذا الدين .

لكنا نتحدث عن خيرية هذا الأمة وهي ما زالت خير أمة أخرجت للناس ، وقبل أن نعطي أدلتنا على خيرية هذه الأمة نقف على هذا المشهد التالي لذكر خير أمة أخرجت للناس بعد أن تحدثنا عن وصف الله تعالى الدقيق جداً لأهل الكتاب والغالب كانوا من اليهود ، لكن تشمل التسمية النصارى واليهود ، فإن الله تعالى لم يحرم الفئة المؤمنة منهم حقها ، وماها عنده من ثواب ، ولكنها - هذه الفئة القليلة - ليست مؤهلة للخيرية التي أعطيت لأمة الإسلام إذ أن الميزان ينقلب تماماً فأكثر أهل الإسلام هم الخيرية وأقلهم - وهم لا يعدمون في أي زمان أو مكان - منافقون أو فاسقون ، وهكذا بدوا أو ظهروا في خير القرون في قرن النبي ﷺ ، ودل القرآن عليهم ، وعرى أفعالهم وأعمالهم ، وبين مصيرهم ، ولم يكن تأثيرهم قليلاً في المجتمع الإسلامي الأول . ولكن ثبات المسلمين الأكثر وإيمانهم ، وصدق إسلامهم ، حيد هذه الفئة أو الفئات البسيطة ، وخسئت بأفعالها وأعمالها ، فقد انسحبوا من معركة أحد وتبوك ، وحاولوا قتل النبي ﷺ مرجعه من تبوك ،

وأججوا الفتنة بين المسلمين في عودة المسلمين من بني المصطلق ، وتحدثوا بالإفك ، ومع كل هذا فإن الرسول ﷺ عاملهم برحمة وحذر منهم ، حتى أنه لم يدل عن من تآمروا على قتله في عودته من تبوك ولكنه أودع سره حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضي الله عنهما ، ولكنه هدم مسجدهم " مسجد الضرار " ، وإذا شك عمر بن الخطاب بأحد أنه اشتهر بالنفاق كان لا يصلي عليه حتى يصلي عليه حذيفة بن اليمان . وكان من شدة ورع عمر وخوفه من الله يأتي حذيفة ويسأله : أأنا منهم يا حذيفة .. ؟ . فالآية الآن انقلبت فما زال في أمة الإسلام على هذا التعداد الهائل ، أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وهي ثابتة على الإسلام قوية الإيمان . تبذل الغالي والرخيص في سبيل الله و لم تنقطع هذه الفئة الخيرة ساعة من زمن بقعة من الأرض منذ ظهور الإسلام حتى اليوم وستبقى شاهدة على الناس ، وسيعود للإسلام عزه ومجده وقوته فإن نبتة الخير جاهزة للإنبات في كل زمان ومكان ، أما عن الفئة المؤمنة من أهل الكتاب ــ وهي القلة – فإن الله تعالى كما أشرنا سابقاً إلى أنها في موقفها المؤمن الخالد ، لا ثوابتها عند الله جل وعلا .

قال تعالى : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)**﴾ [آل عمران] .

وسبب نزول هذه الآيات : أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مندة في الصحابة عن ابن عباس قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعنة " أو سعية " وأسيد بن سعنة " أو سعية " وأسد ابن عبيد ، ومن أسلم من يهود ومعهم ؛ فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد واتبعه إلاّ شرارنا ، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ وذكر مثله عن مقاتل .

وأخرج أحمد وغيره عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد . فإذا بالناس ينتظرون الصلاة ، فقال : " أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم " ، وأنزلت هذه الآية ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ حتى بلغ : ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** ﴾ وبعبارة أخرى لابن مسعود : نزلت الآية في صلاة العتمة (العشاء) يصليها المسلمون . ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصليها .

– وهذه الآيات استمرار في بيان أوصاف أهل الكتاب . ففي الآيات السابقة صنفهم القرآن صنفين . منهم المؤمنون وكثير منهم الفاسقون . ثم حال الفاسقين ومصيرهم وهنا بين حال المؤمنين منهم الذين وإن كانوا قلة دخلوا في الإسلام .

– ليس من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب متساوين أو على حد سواء في الفسق والكفر بل منهم المؤمن والمجرم ، فمنهم فئة قائمة بأمر الله ، مستقيمة على دينه ، مطيعة لشريعته متبعة نبي الله . يتلون القرآن في صلواتهم ليلاً ويكثرون التهجد .

وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً حقاً صادقاً لا شبهة فيه ، ويأمرون غيرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويبادرون إلى فعل الخيرات بسرعة . ويعملون الصالحات دون تلكؤ ، وهم موصوفون عند الله بأنهم من الصالحين الذين صلحت أحوالهم ، وحسنت أعمالهم .

وهم من أحبار أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن سفنة وغيرهم ممن نزلت فيهم هذه الآيات . رداً على اليهود الذين زعموا أن من آمن منهم شرارهم لا خيارهم . ولو كان فيهم خير لما آمنوا .

وما يفعلوا من الطاعات فلن يحرموا ثوابه . ولا يضيع عند الله ، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ، والله شكور عليم بالمتقين . أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً .

– يأبى عدل الله إلاّ أن يظهر الأخيار ، ويبعد الأشرار . لذا أكد سبحانه وتعالى في هذه الآيات التنوية بإيمان المؤمنين من أهل الكتاب ، فإنهم آمنوا بالإسلام ، وصدقوا القرآن ورغبوا في دين الله ورسخوا فيه .

وقاموا بالأعمال الصالحة ، فأصلحوا أنفسهم ، وجاهدوا في إصلاح غيرهم ، وقاوموا دعوة الفساد والانحراف ، فاستحقوا الاتصاف بالصالحين ، والوصف بالصلاح هو غاية المدح والثناء بدليل مدح أنبياء الله إسماعيل وإدريس وذي الكفل بهذا الوصف . فقال تعالى : ﴿ **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ** (٨٦) ﴾ [الأنبياء] وقال عن نبي الله سليمان : ﴿ **وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** (١٩) ﴾ [النمل] وهذا واجب الإنسان العاقل في هذه الحياة ، فلا قيمة لحياة دون عقيدة صحيحة ، ولا مدنية لإنسان دون العمل الصالح . ومحاربة ألوان الفساد .

وسيجد العامل الصالح ثمرة عمله ، ويجازى بأوفر الجزاء ، ويشكر عليه ، ولن يجحد ثوابه وقد سمى الله في آية أخرى إثابة للمحسنين شكراً في قوله : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** (١٩) ﴾

[الإسراء] وسمى نفسه شاكراً في قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة] وعبر الله تعالى هنا عن عدم الإثابة بالكفر [١] .

وبعد الشرح المستفيض لمعنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ واستمرارية هذه الخيرية في المسلمين اليوم ، مع كل ما في ابتعادهم عن المنهج الرباني ، وعدم تطبيق الدول الإسلامية ٦٤ / ١٨٤ من دول الأمم المتحدة شرع الله تعالى ؛ بل الأكثر من هذا انحراف هذه الدول عن الإسلام عقيدة ومنهجاً ودستوراً ؛ وزد على ذلك قيام الدول بحرب الإسلام وحذفه من حياتها ، واقتلاع جذوره من أتباعها .. مع كل ما في هذه الصورة القاتمة المعتمة المظلمة لارتباط المسلمين بالإسلام فإننا نؤكد دليلنا ؛ بل وبالدليل القاطع أن أمة الإسلام اليوم هي الأمة الخيرة كما كانت ، وستبقى الأمة الخيرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأدلتنا على ذلك واضحة وقائمة في جميع أنحاء العالم الذي يتواجد به مسلمون وصدق رسول الله ﷺ ، ففي المسند : " حدثنا أبو المغيرة ، قال : حدثنا صفوان قال [٢] : حدثني سليم بن عامر عن تميم الداري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل . عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر " .

وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية [٣] فالخيرية باقية في المسلمين ، لأن جميع الشعوب الأخرى ـ أهل الكتاب أولاً – والذين حرموا منها بنص قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران] ومن الطبيعي أن تحرم الأمم الوثنية من هذه الخيرية لأنها لم تصل إلى معرفة الله تعالى، ولم تصل إلى تصور وحدانيته جلّ وعز . وهناك الكثير من النقاط التي تدل على هذا الأمر :

١- المسلمون : هم الموحدون الخاصون في الدنيا . والتوحيد هو الاعتراف المطلق بالله تعالى وبصفاته وبأسمائه التي ارتضاها لنفسه ، وأن ما في الكون مهما كان هذا الـ (ما) إنما هو مخلوق من مخلوقات الله جل وعز . لا شريك له في ملكه ولا ولد ولا معين – كما أنه لا إله غيره موازٍ أو أقل أو أكثر منه ، فإن الله تعالى بهذه الصفات والأسماء لا يعيها إلا المسلمون ، القائمون على

---

(١) انظر : التفسير المنير ٤ / ٤٦ فما بعد .

(٢) صفوان : هو صفوان بن عمرو السكسكي – كما ورد في مصادر التخريج – مسند الإمام أحمد ٢٨ / ١٥٤ .

(٣) إسناده صحيح على شرط مسلم ، أخرجه ابن منده ، والبيهقي ، والبخاري في التاريخ ويعقوب بن سفيان والطحاوي وآخرون . المصدر السابق ١٥٤- ١٥٥ .

تصورها والعمل بمقتضاها فرادى وجماعات . والمقصرون من المسلمين إنما هم في مراحل تقصير لا أكثر ، حتى الذين ضلوا وفسقوا وفجروا .. فإنهم يعودون إلى الله تعالى والأمثلة أكثر من أن تحصى أو تذكر . ومن مات على كفره فهم أعداد معدودة . قد يموت أناس من المسلمين على جهلهم والجهل شيء والإنكار المطلق شيء آخر . الذين ينكرون هذا الدين ما زالوا وما كانوا ، وما سيكونون إلاّ فئة لا يعتد بها ولا بعددها ولا بولوجها جهنم وبئس المصير ، سواء أكانت حاكمة أم محكومة ، غنية أم فقيرة ، جاهلة أم عالمة فإنها في تعداد المسلمين لا ترحم عليها ولا يعتد بآرائها أو بها .

فالتوحيد المطلق هو الأساس في عقيدة المسلمين ، والشرك بالله هو الأساس في عقائد أهل الكتاب ، على اختلاف مسمياتهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم ، ومن يتصور قضايا التوحيد ينطلق مباشرة إلى خير الإسلام وجانب الإسلام ، فإذا كانت البداية عبد الله بن سلام وأصحابه ، فإن الإسلام يكسب في كل يوم أعداداً هائلة من المفكرين الذين توصلوا إلى التوحيد إما عن طريق المسلمين ، أو من الناس العاديين الذين يأتون الإسلام راغبين راضين .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائم بين المسلمين ، وهذا ما يؤدي إلى التربية الأمثل بينهم ، بين الأبوين والأبناء ، وبين الدعاة ، وبين إقامة الشعائر وحرية إتيانها ، وبين العبادات التي غدت تنقل للعالم بالوسائل الإعلامية والعلمية الكثيرة وإذا قصرت عن الوصول إلى الحاكم والحكام الذين أحاطوا أنفسهم بسياج شائك من الحراس والحجاب والمخبرين والمنتفعين ، فلم يعد يتمكن الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر للوصول إليهم ، فقد تمكن المحجوبون بواسطة الحاجبين أن ينقلبوا على المسلمين وأحياناً على الإسلام نفسه ، فيظهروا العداوة والبغضاء ، وهذا ما أدى إلى الانفصام النكد بين الشعوب المسلمة ، بين أمة الإسلام قاطبة ، وبين الحكام ، وما زال المسلمون يدعون للحكام بالهداية على مسمع متواصل في خطب الجمع والجماعات عموماً ، و لم ينقطع حبل الاتصال بالحكام وبأتباع الحكام الذين يعيشون في حصون تقيهم وصول الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر إليهم .

التوحيد المطلق هي السمة التي يتصف بها المسلمون فقط . وتقاس قضية التوحيد من مجرد الإيمان وعدم الإشراك ، إلى العمل بما أمر الله تعالى وبالعزائم ، وتنفرد أمة الإسلام دون سواها بهذا. أما قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وإن خف أوارها بين المسلمين عامة ، ولكنها ما زالت في نفوسهم جميعاً ، بعضهم يقدم للعمل بها ولإنكار المنكر ومحاربة الباطل بالترتيب الذي أشار إليه رسول الله من اليد إلى اللسان إلى القلب وهو أضعف الإيمان .

لا ننكر أن قوانين الغربيين ربما أدت إلى إحقاق الحقوق عندهم أكثر مما عندنا ، والحريات المطلقة في هذا المجال ، وعقد المشاركة بين الحاكم والمحكوم ، كل هذا أدى إلى انتشار العدالة بينهم أكثر مما عندنا ، وارتضى الغربيون نظاماً أسموه " الديمقراطية " تمتع بموجبه المحكوم بكل الحقوق المتوجبة له – تجاه الدولة – وارتضاه الحاكم ليصل إلى الحكم وليتركه فأدت هذه القضية إلى إماتة عقدة الخوف من الحاكم على الخصوص ، وقناعة المحكوم بأنه قادر على الوصول إلى حقه من أعلى السلطة إلى أسفلها ، كما أن استقلالية القضاء أعطت هذا النظام دعماً قوياً لتمتين أسس الحرية في تلك الدول . ثم توجه هذه الدول لمحو تاريخها الأسود من قضيتي التسلط والحروب فيما بينها ؛ أعطتها نوعاً جديداً من الهيمنة والسلطان ، كل هذا بعيداً عن أسس الدين الذي تدين به "النصرانية" التي تعتنقها أكثر هذه الدول ، وتعداد النصارى تقارب أكبر تعداد سكاني في العالم يأتي بعدها المسلمون لكن هذه الشعوب ابتعدت كلية عن النصرانية ، و لم يعد الارتباط بها إلاّ بخيوط واهية جداً ، تبتعد النصرانية بها عن معتنقيها يوماً بعد يوم ، وكثير من الشعوب لم يعد لها ذاك الارتباط الروحي أو المادي " فتحول الكثير من النصرانيين إلى الإسلام أو البوذية ، أو التخلي تماماً عن أي معتقد كان . أما بالنسبة للإسلام فإنه ما زال الأقوى تواجداً في نفوس أتباعه ، سواء عملوا بمقتضاه والأكثر هم من العاملين وبحدود متقدمة ، والنادر من تخلى عنه شعوراً بالتقصير وهذا ما يجعل الكثيرون يعودون – رغم شذوذهم الفكري – بعد فترة من الزمن إلى هذا الدين عاملين ولو بما ينفعهم بعيداً عن تحولهم إلى دعاة ، وكثيرون يتحولون إلى دعاة وحملة لهذا الدين والعمل بكل ما يتوجب عليهم من عبادات ومعتقدات .

هذه الصفة تميز المسلمين عن سواهم بصرفهم أوقاتاً طويلة من حياتهم بممارسة شعائر الإسلام. فغالباً ما يتمسك المسلمون بشهر من السنة بالالتزام التام بكل الشعائر – شهر رمضان – من صيام وصلاة وزكاة – وهذا بالنسبة للمقصرين فرصة دائمة للعودة إلى الله . أما غالبية المسلمين فرمضان بالنسبة إليهم حافز للزيادة،والعطاء،والعبادة،والدعوة ، والتفقه وصلة الرحم ، والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما قل منها وما كثر ويأتي الحج وهو أيام معدودات . يتوجه به المسلمون إلى الديار المقدسة لأداء هذه الفريضة المباركة . ولو أجري إحصاء دقيق في سنة من السنوات والحج يتكرر كل عام في الأشهر الحرم – ذى القعدة – ذى الحجة – محرم – نجد أن نسبة عالية جداً من المقصرين تابوا إلى ربهم ، وجاءوا لاستكمال الفرائض ، وللمثابرة بعد ذلك على التمسك بالإسلام والعمل بمقتضاه . هذه العبادة أيضاً تعتبر طريقاً للعودة إلى الإسلام . والملايين تعود عن هذا الطريق وبعضها كان للحج أثره في التحول الخطير والكبير في حياتهم عموماً .

للديانات الأخرى السماوية – أو الوثنية – محجات ، لكن تأثيرها ليس كتأثير الحج في نفوس المسلمين ، والنتائج المترتبة على هذه المحجات لا تعادل جزءا من مليون مما يترتب على حج المسلمين وعودتهم إلى التمسك بالإسلام .

إن الارتباط اليومي بالإسلام والخوف من الله تعالى . لا يوجد إلاّ عند المتخصصين والممتهنين للتدين – الكهان – والحاخامات – والمرتزقة من أماكن العبادات ، وبعض رجال الدين ، والنادر جداً من أتباع هذه الديانات يرتبطون بمعتقداتهم يومياً . أما المسلمون فارتباطهم اليومي بالإسلام لا يوازيه ارتباط في كل بني الإنسان مهما تنوعت معتقداتهم . فالصلاة خمس مرات ، والالتزام بأوامر الله تعالى بالتعامل والبيع والشراء والتعامل المالي والتعامل الاجتماعي والتعليم ، والمعاملة في الأسرة والمجتمع حيث يرتبط المسلمون من أكبرهم إلى أصغرهم بآداب الإسلام وأحكامه . والخروج عن الشريعة وأوامرها محدود بأشخاص ولا يلزم ذلك الممتهنين للدين فقط ، بل يشمل جمهور المسلمين في جميع أنحاء الأرض . ولا تفتح معابد غير المسلمين إلاّ بالمناسبات ، ومساجد المسلمين في أنحاء الدنيا تفتح من الفجر إلى العشاء وبعضها يستمر كل الليل لمن أراد أن يتعبد أو يصلي النوافل والاعتكاف . مناسبات الآخرين كل أسبوع تقريباً . يوم عيدهم الأسبوعي . والمسلمون يزدون العبادة خمس مرات في اليوم أي توازي صلاة المسلمين للآخرين ١/٣٥ . ولا أعتقد أن هذه النسبة يصل إليها العباد من أتباع الديانات من غير الإسلام .

هذا يعطي أمة الإسلام قصب السبق في العبادة والالتزام بأوامر الله وأحكام الدين ، وهذه ميزة ميز الله تعالى بها أمة الإسلام فكانت بحق خير أمة أخرجت للناس . إن التزام المسلمين بأوامر الإسلام أمر ثابت في جميع تحركات المسلم على الأرض وعلى اختلاف المعتنقين من عرب وعجم وترك وهنود ومالاوي وزنوج وبيض وحمر وصفر وغير ذلك . هذا الالتزام نابع من الإيمان بالله تعالى والشعور الدائم بأن الله تعالى مضطلع على ما تخفي النفس . والمراقبة والخوف من الله تجعل المسلم أكثر الخلق التزاماً بمعتقداته والتزاماً بدينه . وهذا الالتزام بالسر والعلن يجعل المجتمعات الإسلامية أقل المجتمعات في الدنيا انحرافاً عن الفضائل التي تعارف عليها الناس ؛ كالسرقة والزنا والقتل ، والتعدي والسرقة ، والكذب والغش ، وأكل حقوق الناس بالباطل ، والتعدي على حقوق الآخرين مهما كانت . كل هذه الأمور للمسلمين عامة – لعدم وجود تخصصات – "كهنة " كما في الديانات الأخرى .

إن أقل الجرائم الإنسانية في العالم تقع في عالم المسلمين ، إلاّ ما كان من تأثر المسلمين بحضارة الغرب المادية ، فإنما انتقلت الجرائم إلى المجتمع الإسلامي مع انتشار الحضارة الغربية المادية والفكرية

وخاصة قضايا التعليم والإعلام . أما المجتمعات المسلمة التي يحكمها الخلق والدين وما توارثه المسلمون ، وما حوته نصوص دينهم فإن الجرائم الإنسانية أقل كثيراً من المجتمعات الغربية أو الوثنية. ولم يكلف الباحثون أنفسهم عناء إجراء الإحصائيات ، لأنها ستدين حضارة الغرب المادية التي أغرقت في اقتناص الشهوات من المال والنساء والسلطان والتسلط وحكم الضعفاء وأكل حقوقهم . ولعل ما يطلعنا به إعلام الغرب عنهم من خلال ممارسة حرياتهم ؛ كفيل بإعطاء صورة واضحة عن ممارسات الإنسان بحق الإنسان . ما من شك بأن الكثير من المخالفات لشرع الله تقع في عالم المسلمين ، ولكنه يبقى – هذا الشرع هو الفيصل الواضح الذي يردع المسلمين عن المخالفات الكثيرة . كما أن الإيمان الذي يختلج في نفوس المسلمين هو الرادع الأول لكل الممارسات اللامسؤولة التي ؛ ربما تقع لولا هذا الإيمان ؛ الذي يقنع النفس الإسلامية بأن الله تعالى يضطلع على خائنة الأعين وما تخفي النفوس . كما أن نصوص القرآن الكريم واضحة في هذا المجال. والإيمان المطلق بالله تعالى وما أنزل على عبده يصدان كل انحراف . وإن حصل فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالتوبة والغفران إن تركوا المنكر وعملوا بالمعروف . وتلك آيات كثيرة تردع المؤمنين عن إتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والتي تقود إلى الجريمة والإخلال بموازين المجتمع وقيمه ، وتدعوا إلى الفضيلة والتطهر والبعد عن أكل حقوق الآخرين بأية مقاييس كانت ، ومهما صغرت أو كبرت . والمجتمع المسلم هو فقط الذي وصل إلى المثالية في التطبيق بين النصوص وقناعة الناس بالنصوص ، والخوف من الله ، والخوف من الوقوع في مخالفات أو جرائم نهى عنها الشرع . فاستقامت قيم الأمة الإسلامية وترسخت وأصبحت عنواناً لسلوك المسلم ومساره في حياته المؤدية إلى آخرته قال تعالى : ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١)الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ(٢)الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣)ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤)**﴾ [الملك] .

وفي كل آية من آيات الله دليل واضح على طهارة المجتمع المسلم ونقائه وخيريته بين شعوب الأرض جميعاً . وتأتي السنة المطهرة ، وسيرة المصطفى وأصحابه والتابعين والمؤمنين في كل زمان "الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر " دلالة واضحة على براءة المجتمع المسلم من المخالفين من المسلمين ، والمراقبة القوية التي تربي أفراد المجتمع عليها ، هي التي تردع المخالفين والمعتدين على قيم المجتمع وأخلاقه،وما خص الله تعالى من التنزيل أمة الإسلام التي تتوالى صفاقا الخيرة في كل صقع ، وفي كل زمان ومكان وعلى اختلاف شعوبها والمنتمين إلى هذا الدين من بني البشر .

٢- إن ارتباط المسلم بالمسجد كان من أول الخطوات التي خطها الرسول ﷺ للمؤمنين فما أن استقر في المدينة حتى قام ببناء المسجد ، وإذا كانت أماكن العبادة في كل الأديان والمعتقدات مكاناً مخصصاً للعبادة فقط، فإن المسجد قد تجاوز هذا الهدف ، أي تجاوز أن يكون مكاناً للصلاة فقط ؛ فهو في الإسلام مكان عبادة ، وتلاق بين المسلمين يومياً خمس مرات ، وفيه تقام الجمع والأعياد ، وبه تعقد الاجتماعات الهامة للمسلمين بما يرتبط بحياتهم ومعاشهم ، وبه تلتقي الجماعة المسلمة لدراسة أحوالها ولدراسة أمورها ولتبادل الآراء ، وتقام بها – عدا الصلوات المفروضة – الاحتفالات وكذلك المآتم ، ففيه يصلى على الجنائز وفيه يتبادل المسلمون مصالحهم . فهو دنياهم ودينهم . فالمسجد أشرف بقاع الأرض كرمَّهُ رب العزة فنسبه إلى ذاته العلية المقدسة نسبة تشريف وتكريم ، والبيت يسمو بصاحبه ، لا إله إلاّ هو عز وجل ، تقدست ذاته وتنزهت صفاته ، ولله المثل الأعلى .

قال الله تبارك وتعالى :﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)** ﴾ [الجن] وعطر الله القرآن المجيد بذكر المسجد في أكثر من موضع منه ، وأثنى على قوم سبحوا ربهم فيه بالغداة والآصال . قال الحق جل وعلا : ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)**﴾ [النور] . وأوضح القرآن المجيد أن التردد على المسجد وعمارته من علامات الإيمان وصدق اليقين . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾[التوبة : ١٨] .

ونوه الحديث الشريف بمكانة المسجد ، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : " إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا " قلت : يا رسول الله وما رياض الجنة .. ؟ قال : " المساجد " . قلت : وما الرتع ؟ قال : " سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر " والمسجد كان ولا يزال مناراً للهدى ، ومشعلاً للنور ، وطريقاً إلى الخير ، وسبيلاً إلى العرفان . فيه تأسست مدرسة النبوة، وارتفعت راية الحق ، وانتشرت أضواء القرآن المجيد . وهو من أفضل الأمكنة لعبادة الله وطاعته، ودراسة قرآنه وسنة نبيه ، ومشرق نوره ، ومنزل سكينته ، ومعقل دينه ووحيه ، ومعهد علمه وحكمته وموضع دعائه ورجائه .

والمسجد كما تتلألأ صفحات تاريخية ، تعلن أنه كان عبر القرون ومن واقع التاريخ الإسلامي جديرا أن يكون المدرسة الجامعة لكل معاني الخير ، والموجه إلى أسمى المبادئ ، وأمثل القيم ، يتلاقى فيه أبناء الإسلام ليتفقهوا أسرار شريعتهم ، ويتدارسوا ما فيه خيرهم وصلاحهم ، والمسجد هداية ونور ، وتقويم وإرشاد وسبيل إصلاح [١] .

وكانت المساجد على مر العصور منارة العلم ومثابة العلماء . وفي ساحاتها انعقدت حلقات الدروس وأقيمت المناظرات ، وتشققت المذاهب والآراء ، فكان لذلك أثره البعيد في تقدم العلوم والآداب والفنون . وعلى منابرها وقف الخلفاء واللسن المصاقع من الخطباء وأثر عنهم القول البليغ، والنصح الرشيد ، وما تناقله الرواة ، وأودع بطون الكتب والأسفار .

ثم هي من قبل ذلك من أشرف البقاع عند المسلمين ، وأقربها إلى نفوسهم وأروحها على قلوبهم ؛ يهرعون إليها خمس مرات في اليوم ، يؤدون الشعائر ويقيمون الصلوات ، ويخرجون منها أصفى ما يكونون أفئدة وعقولاً [٢] .

وهناك الكثير من الأحكام المتعلقة بالمسجد وآدابه ودخوله والمكوث فيه والنوم والاستيقاظ والبيع والشراء وغير ذلك ومنها مثلاً :

المتطهر إذا جلس في المسجد لعبادة ؛ من اعتكاف ، أو قراءة قرآن ، أو علم ، أو سماع موعظة، أو انتظار الصلاة ونحوها كان مستحباً إن لم يكن بشيء كان مباحاً .

في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " لايزال أحدكم في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلاّ الصلاة " وفي البخاري من حديثه أيضاً : أن رسول الله ﷺ قال : " إن الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث ، تقول : اللهم اغفر له اللهم ارحمه " [٣] . ويستحب عقد حلق العلم في المساجد وذكر المواعظ والرقائق ونحوها ، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مشهورة ، قاله النووي في شرح المهذب ، ونقل ابن بطال فيه الإجماع . وقد روى ابن ماجة عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : " من دخل مسجدنا هذا ليعمل خيراً أو ليتعلم كان كالمجاهد في سبيل الله " ولا فرق في هذا بين المعتكف وغيره . قال النووي : ويجوز قراءة الأحاديث المشهورة والمغازي والرقائق ونحوها مما ليس فيه موضوع ولا ما تحمله عقول العوام [٤] .

---

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد – محمد بن عبد الله الزركشي – تحقيق الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي – إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف – دولة الإمارات ط١ ١٣٩٧هـ مقدمة : ص ١-٢ .

(٢) انظر : إعلام الساجد بأحكام المساجد ، مرجع سابق ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

- وصلاة الفرض في المسجد أفضل من فعلها فيما سواه . هذا إذا كانت الجماعة في الموضعين على السواء ، فإن كان يفعلها في البيت جماعة وفي المسجد منفرداً كان فعلها في البيت في جماعة أولى .

- الصلاة في الجامع أفضل من المسجد الصغير لكثرة الجماعة . وفي الأوسط للطبراني أن النبي ﷺ قال : " الصلاة في المسجد الجامع تعدل الفريضة حجة مبرورة والنافلة كحجة متقبلة " .

وهناك أحكام كثيرة متعلقة بالمسجد ، بناؤه ، زخرفته ، فرشه ، الصلاة فيه ، القضاء فيه ، يحسن الرجوع إلى أصل الكتاب .

وهذه النقول ما هي إلاّ للتذكر ما للمسجد من أهمية في حياة المسلمين . وإن المساجد الآن في عالم المسلمين تغطي مساحات شاسعة ، ولا يخلو بحال مرفق حياة مهما صغر أو كبر من مسجد ، في سوق أو قرية أو تجمع ناس أو مصنع أو مكان عمل ، أو مدرسة أو جامعة أو دار علم أو مطار أو محطة ، أو سوق مؤقت .. إلاّ وتبنى به المساجد كل حسب حاجته وأهميته . وفي أماكن تجمع المسلمين في غير بلاد الإسلام أول ما يفكر به المسلمون بناء المسجد في أكثر الأماكن ، وقد حولت في عالم النصارى الآن الكثير من معابد اليهود وكنائس النصارى ، وبعض معابد الوثنيين حولت إلى مساجد يعبد فيها الله تعالى على طريقة أرادها لخير أمة وهي طريقة الإسلام العظيم . ((انظر بحث : المسجد تخطيط المدينة العربية الحديثة ، للمؤلف ضمن بحوث الاجتماع الثامن لمنظمة المدينة العربية ج٢ / ص ٢٩٣ عام ١٩٨٩م)) .

توزع المسلمين في العالم :

الناظر إلى خارطة العالم الحديث التي جزأها أوربا أجزاء ودولا وأقرها بعد ذلك بأمر من "الرجل الأبيض " [١] وأسمتها بالشرعية الدولية .. أي هيئة الأمم المتحدة المؤلفة مما يقارب ١٩٠ دولة – عدا المنظمات التي أعطيت حق المراقبة فقط دون إدراجها في هيئة الأمم المتحدة . وتمخض عن هيئة الأمم المتحدة " مجلس الأمن الذي يضم خمس عشرة دولة خمس دائمة العضوية ٤ منها من الرجل الأبيض والخامسة من العرق الأصفر ، دائمو العضوية هؤلاء يملكون " حق النقض " لأي قرار لا يتفق ومزاج أية واحدة منهن ، ولم تستعمله الصين حتى الآن ولا مرة واحدة . واستعمل مئات المرات في القضايا التي تخص المسلمين خاصة وبعض القضايا التي لا تساير مزاج هذه الأربعة عامة .

---

(١) الرجل الأبيض : تعريف يعني العرق الأبيض القاني (الأشقر) الذي يعيش في أوربا وأمريكا وعموماً مناطق انتشار النصرانية . ويمثله الآن العولمة (أو أمريكا) الولايات المتحدة .

الخارطة من أعجب ما يمكن ؛ من تجزئة لهـذا العالم الذي تقطع إرباً إرباً في عملية خبيثـة . فيها كل ما في الإنسان من أحقاد . ودول العالم الإسلامي فقط منها ٦٤ دولة عدا ثلث المسلمين الذين يعيشون أقليات بين أكثرية عقائدية أخرى وثنية أو من أهل الكتاب . قلنا في مقدمة كتابنا : إن ثلثي المسلمين فقط أي حوالي " مليار " مسلم يعيشون في ما يعرف بالعالم الإسلامي في آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا – وأية دولة أخرى يزيد المسلمون فيها عن ٥٠ % من السـكان .. أو أهـم أكثرية بين مجموعات جنسية أخرى ومثالها " البوسنة والهرسك " ٤٠ % مسلمون ٣٨ % مـن الصرب و ٢٢ % من الكروات ، وهؤلاء توارثوا أرضهم عن آبائهم أو أجـدادهم والفـاتحين الأولين من المسلمين بالفتح أو بالدعوة .. إذ أن أكثر من نصف المسلمين في العـالم لم تصـلهم جيوش ولا فاتحون وإنما وصلتهم الدعوة الإسلامية ودخلوا بالإسلام عن طريق القناعـة وقبـول الدعوة .

وهذا العالم الإسلامي يضم الآن حوالي ٦٤ دولة مستقلة متصلة فيما بينها إلاّ مـن بعـض التقطعات البسيطة التي جعلت بعض المسلمين ينـزوون بعيداً عن جسد الأمة الإسلامية – اليونان بين تركيا وألبانيا .. وكرواتيا والصرب بين مسلمي البوسنة وبقية عالم المسلمين . ثم الهند بـين العالم الإسلامي وبنغلادش ومعها الصين والهند الصينية تفصل كل من ماليزيـا – وبرونـاي – إندونيسيا عن الاتصال بالعالم الإسلامي . والملاحظة أن الأرض الفاصلة بين الهند والصين مسلمون في هذه المناطق وهم أقليات في تلك الدول .. أي أن الجسد الإسلامي إن لم يتصل بـراً بـبعض التقطعات فإنه يعوض بالاتصال البحـري – فمثلاً يعتبر المحيط الهندي بحراً إسلاميا بكل معـنى الكلمـة . كما أن الشواطئ الشرقية والجنوبية وشيء من الشمال في البحر المتوسـط منـاطق إسلامية .

دول العالم الإسلامي عدا عن كونها ١إلى ٣ من العالم أو تعداد الدول في العالم فإنـه يضـم غالبيتها منظمة العالم الإسلامي . كما تعتبر الجامعة العربية برمتها دولاً إسلامية ، وكذلك الوحدة الإفريقية ودول عدم الانحياز فإن غالبية الدول من المسلمين . مع كون وجود أقليات غير مسلمة مجتمعة تعادل ١٠ % من السكان نصارى ، يهود ، بوذيين ، هندوس ، وثنيين .. إلخ متفرقين أو مجتمعين في أماكن تواجدهم .هذا العالم الإسلامي أتينا على وصفه بشيء من التوسع .

وتأتي الأقليات الإسلامية في العالم وتتواجد في كل نقطة في العالم تقريباً ، ربما القطب الشمالي أو الجنوبي يفتقد لوجود المسلمين هناك ، كما يفتقد لوجود كل بني البشر عدا السكان الأصليين . وربما هذا من باب التقصير في الدعوة إلى الله عز وجل .

- أكبر تجمع للمسلمين في دولة واحدة هم في الصين ما يقارب ١٣٠ مليون أي حوالي ١٠ - ١١ % من سكان الصين ومن ثم ١١٥ - ١٢٠ مليون في الهند أي حوالي ١٥ - ١٧ % من سكان الهند . ثم روسيا وفيها وحدها حوالي ٢٥ مليون من المسلمين أي ١٠ % - ٤٠ % مثل بلجيكا وهولندا وتتزايد النسبة عن ١٠ % في دول أوربا الشرقية وإيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا وتقل قليلاً في سويسرا والنمسا ثم يتكاثر المسلمون كأقليات في دول أفريقيا فحين تصل النسبة إلى ٧٠ % ويحكمهم نصارى مثل إريتريا وتنزانيا ، وأوغندا تقل النسبة لتصل إلى حد أدنى حوالي ١٥ % من سكان تلك الدول . عدا أن كثيراً من الدول الأفريقية التي تعتبر معقلاً قوياً للإسلام وتصل نسبة المسلمين بها إلى ٩٩ % كالصومال وموريتانيا والأقليات في أفريقيا مجتمعة تصل إلى ٥٠ - ٦٠ مليون من المسلمين نظراً لكون الدول الأخرى دولاً إسلامية خالصة وهي الغالبية وذات العدد الكبير من السكان .

في استراليا تتزايد نسبة المسلمين باضطراد لتصل إلى حوالي ٥ % من سكان استراليا وكذلك في اليابان وكوريا ودول الهند الصينية أما في الفلبين فتصل نسبة المسلمين إلى ٢٥ - ٣٠ % من سكان تلك الدول التي كانت يوماً من الأيام كلها مسلمون .

في القارة الأمريكية يتكاثر المسلمون بشكل ملحوظ في الولايات المتحدة وكندا إذ يصل العدد إلى مالا يقل عن ٢٥ مليون في كلا الدولتين وتشكل النسبة حوالي ٥ % تقريباً . أما في أمريكا الجنوبية فإن المسلمين قد وصلوا إليها قبل إخوانهم في الشمال ولكن البعض ذاب هناك والبعض الآخر عاد ليتواجد بشكل غير مؤثر ، وبعض دول أمريكا الوسطى تصل الغالبية من المسلمين فيها إلى ٥٠ % واليوم المسلمون في كل بلد وجزيرة وقطر وواد وجبل وسهل ومدينة ، ويعتبر الآن أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً في العالم . ينافسه العمل التبشيري الذي يمارسه عالم النصارى على اختلاف مشاربه ومصادره ودوله ، كما أن الإسلام ينافس وبشدة التبشير النصراني بين الوثنيين في أفريقيا والهند والصين وغيرها من المعتقدات .

كما أن التبشير النصراني والاستعمار النصراني للعالم الإسلامي ، وهيمنة الدول النصرانية وقوتها وتفوقها المادي والمعنوي والعسكري والاقتصادي والفكري تؤثر تأثيراً عكسياً على انتشار الإسلام وتقدمه ، وهذا ما سنذكره تفصيلاً لاحقاً .

الأقليات غير الإسلامية بين المسلمين :

ظهر الإسلام في بداية القرن السابع للميلاد - لميلاد السيد المسيح عليه السلام - وتحديداً في عام ٦١٠ م . وكانت النصرانية قد تخلصت من فترة القهر وإرهاب الدولة - الرومانية -

خاصة وأصبحت الدولة الرومانية الشرقية – والتي عرفت بالبيزنطية رسمياً وشعبياً – تحارب في كثير من الأحيان لفرض هذا الدين على الشعوب الخاضعة لها ، ويعتبر هذا الوقت ذروة انتشار المسيحية في العالم . لأن الدولة البيزنطية كانت تقتسم مع دولة الفرس العالم المتحضر آنذاك – أو المتحرك على الأقل – إذ كانت الشعوب الهندية والصين في ثبات وانكفاء على الذات، و لم تكن هاتان القوتان رغم كثرتهما واحتلالهما مساحات واسعة من الأرض غير فاعلتين في العالم . ويمكن اعتبار القرن السابع الذي ظهر فيه الإسلام ذروة السيطرة المسيحية في العالم – ولو أن الانقسامات قد أخذت منحناً معيناً وبدأت تفترق الكنيسة المسيحية إلى عدة اتجاهات مازالت سائدة حتى الآن. من هذا المنطلق . فإن بعضاً من القبائل العربية كطيئ وتغلب وغسان قد اعتنقوا المسيحية نتيجة الارتباط المباشر مع الدولة البيزنطية . كما أن أفراداً من العرب اطلعوا على النصرانية ومنهم من اعتنقها وعايشها وتبناها ووردت أسماء عند العرب عرفوا بأنهم تنصروا أو على الأقل اطلعوا على دين النصرانية مثل ورقة بن نوفل ، وأبو عامر الراهب ، وقس بن ساعدة .

وقد ذكر (ابن قتيبة الدينوري) : أن النصرانية كانت في ربيعة ، وغسان وبعض قضاعة . وقال اليعقوبي : وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرق بن أسد بن عبد العزى . وورقة بن نوفل بن أسد . ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة ، ومن ربيعة بنو تغلب . ومن اليمن طيئ ومذحج وبهراء وسليم وتنوخ وغسان ولخم (اليعقوبي ١ / ٢٢٧) .

وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشام واضحاً وظاهراً أكثر منه في أي مكان آخر . (بلاد الشام) ما يقصده علماء الجغرافيا العرب من هذا المصطلح . فقد كان لعرب هذه الديار علاقة مباشرة واتصال ثقافي بغيرهم من سكان هذه الأرضين الذين دخل أكثرهم في النصرانية . والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الرومان فيها ؛ واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ أن تنصر أول قيصر من القياصرة . فكان من أول واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم لا تقرباً إلى الله وحده بل لتمكين سلطانهم عليهم ، وإخضاعهم روحياً لهم [1] .

ووجدت النصرانية بعد بلاد الشام والعراق لها مواضع أخرى دخلت إليها هي أطراف جزيرة العرب . كالعربية الغربية والجنوبية والشرقية . وتفسير دخولها إلى هذه الأرضين واضح هو اتصالها

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الدكتور جواد علي – دار العلم للملايين – بيروت – مكتبة النهضة بغداد – ساعدت جامعة بغداد على نشره ط ثانية ١٩٧٨ ٦ / ٥٩٠ .

بطرق القوافل البرية والبحرية في البلاد التي انتشرت فيها النصرانية . ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل التجارية إليها [١] .

كما أن نصارى نجران دخلوا النصرانية من جراء تأثير احتلال الأحباش لليمن وكان الأحباش قد تنصروا نتيجة علاقتهم الطيبة مع الروم ، وربما كانوا يمثلون النفوذ الروماني في جنوب الجزيرة العربية - العرب وكذلك الذين كانوا قد اتخذوا أرض العرب مستقراً لهم .

كما كان في مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها لأسباب منها الرق ، والاتجار ، والتبشير ، والحرفة ، فأما الرقيق : فمنهم الأبيض والأسود - الأسود من أفريقيا ، والأبيض من أوربا . أو من أقطار الشرق الأدنى ، وهم أعلى في المنزلة والسعر من النوع الأول [٢] .

- دخلت اليهودية جزيرة العرب نتيجة للنكبات التي حلت بهم في فلسطين . ومع أن بعض الروايات تذكر قدم اليهود في جزيرة العرب فإن وجودهم وحقيقة تاريخهم لا تتعدى الميلاد . أما قبل ذلك فإن الأساطير وتعظيم اليهود لأخبارهم تعود بهم إلى حقب بعيدة لأيام سيدنا موسى عليه السلام .

- وقد عرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي ، ولا بد من وقوف الجاهليين على أحوالهم لأنهم كانوا يسكنون في مواضع عديدة ومعروفة تقع ما بين فلسطين ويثرب كما سكنوا في اليمن واليمامة وفي العروض . وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للاتجار وإقراض المال ربا فاحش للمحتاجين [٣] . وقد انتشر اليهود جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر ويثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم . وقد أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم على دفع أتاوة لهم . وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم . وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو الأحوال فيما بينها ، وتلتئم ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطراً يهدد اليهود .

أما عن تواجد اليهود في بلاد العرب فقد وردت روايات كثيرة جداً في ذلك ، أعادها بعض المؤرخين إلى أيام موسى عليه السلام بإرساله حملة على العماليق الذين كانوا يحكمون يثرب وما

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مرجع سابق ص ٦٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠٣ وللتوسع في الموضوع يرجى مراجعة المصدر المذكور .

(٣) انظر : المصدر السابق ٦ / ٥١١ .

حولها وهذا أمر مستبعد جداً لأن موسى عليه السلام لم تكن سيطرته كاملة على بني إسرائيل . وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الإشارات حول هذا الفصام بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة وبنو إسرائيل من جهة أخرى ، وهم الذين رفضوا دخول الحرب مع الكنعانيين سكان فلسطين ومنها قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ(٢٠)يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(٢١)قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ(٢٢)** ﴾ [المائدة] .

ويرى بعض الإخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ، ونزولهم وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب إنما كان أيام ((بخت نصر)) . فلما جاء ((بخت نصر)) إلى فلسطين هرب بعضهم إلى هذه المواضع واستقروا بها إلى مجيء الإسلام [١] وليس في هذا الخبر ما يحملنا على استبعاده (وهو النزول الأول لليهود) وأما ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح . فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك [٢] .

ويؤكد الكثير من الإخباريين أن قدوم اليهود إلى يثرب بالذات هو ما ورد في كتبهم أن يثرب ستكون مهاجر نبي سيعيد التوحيد وسينتصر على المشركين . فالكثير أرادوا أن يكونوا أتباع هذا النبي . وكانوا يهددون العرب كلما استذلهم أولئك بأن زمان نبي قد حل ويثرب مهاجره ، وسيقاتلون العرب مع هذا النبي ويفنونهم كعاد وإرم . فلما ظهر رسول الله ﷺ كفر به أكثرهم وآمن منهم القليل ، وشنوا حروباً متتالية على المسلمين منها أيام قينقاع ، وأيام بني النضير وأيام بني قريظة وهزيمتهم الساحقة في خيبر ، ثم إخراجهم نهائياً من جزيرة العرب .

الحنفاء : أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا من النصارى . وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته . قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

---

(١) الأغاني ١٩ / ٩٤ . ابن خلدون ٢ / ٥٩٤ . الكامل في التاريخ ١ / ٤٠١ .

(٢) انظر : المفصل ٦ / ٥١٧ .

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء والأحناف . ونعتوا أنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ولم يكونوا يهوداً أو نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحداً . سفهوا عبادة الأصنام ، وسفهوا رأي القائلين بها . وقد أشير إلى (الحنيفية) والحنفاء في كتب الحديث [١] . وقد بحث عنها شراح هذه الكتب .. ومما ذكر قوله ﷺ :

- لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة [٢] .
- بعثت بالحنيفية السمحة السهلة [٣] .
- أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة [٤] .

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعي على دين إبراهيم . كانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه ، فلما جاء عمرو بن لحي ، أفسد العرب ، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام . بما تعلمه من وثنى بلاد الشام حين زارهم " قبل انتشار النصرانية بينهم " وحل بينهم فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ، ومُضِلُّهُم الأول ، وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل ، ومقسمها عليهم . فكان من دعوته تلك عبادة الأوثان إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل ، إلى دين إبراهيم عليه السلام حنيفاً وما كان إبراهيم من المشركين [٥] .

وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل : ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ [البقرة : ١٣٥] : قال : وما كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب . وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون : نحن حنفاء على دين إبراهيم . فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفاً . وقال الأخفش : الحنيف المسلم . وكان في الجاهلية يقال : من اختتن وحج البيت حنيف ؛ لأن العرب لم تتمسك بالجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان ، وحج البيت . فكل من حج واختتن قيل له حنيف ، فلما جاء الإسلام نادى بالحنيفية ، فالحنيف المسلم [٦] .

إن تحول العرب عن الحنيفية إلى عبادة الأصنام والأوثان . أوقع العرب في الشرك فمنهم من عبدوا الأصنام واتخذوها آلهة تضر وتنفع ، وهي عودة إلى ما كان عليه قوم إبراهيم عليه السلام في

---

(١) راجع ونستك : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١ / ٣٢ ، ٤ / ١١٦ .

(٣) اللسان ٩ / ٥٦ .

(٤) " أحب الدين إلى الحنيفية السمحة " الإصابة ١/٥١ رقم ١١٤ ، ١١٥ .

(٥) انظر : المفصل ٦ / ٤٤٩ – ٤٥٠ .

(٦) لسان العرب – الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم ابن منظور الأفريقي المصري – دار صادر ، بيروت .

أور - وعموم بلاد الشرق في العراق والشام ومصر ، وفريق آخر اعتبر أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولكنهم اتخذوها وسيلة إلى الله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣]. والقسم الثالث هم الذين تحنفوا وقاموا بما يطلب منهم من الممارسات لهذا الدين . إذ لا يكفي الاختتان والحج ليكون الفاعل حنيفياً .

وقد لخص (الفخر الرازي) و (الطبرسي) آراء العلماء في الحنيفية وإجمالها في تفسيريهما للآية : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾ [البقرة] فقالا " وفي الحنيفية أربعة أقوال : أحدها : أنها حج البيت ، عن ابن عباس والحسن ومجاهد . وثانيها : أنها اتباع الحق ، عن مجاهد ، وثالثها : أنها اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام . والرابع : أنها الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية" [١] .عندي [٢] أن لفظ (حنيف) هي في الأصل بمعنى (صابئ) أي خارج عن ملة القوم تارك لعبادتهم ، ويؤيد رأيي هذا ما ذهب إليه علماء اللغة من أنها من الميل عن الشيء وتركه . ومن ورودها بهذا المعنى في النصوص العربية . وبمعنى (الملحد) و (المنافق) و (الكافر) في لغة بني آدم . ومن إطلاق المسعودى و (ابن العبري) لهذه اللفظة على الصابئة . ومن ذهاب (المسعودى) إلى أن اللفظة من الألفاظ السريانية المعربة . وقد أطلقت على المنشقين على عبادة قومهم الخارجين عليها. كما أطلق أهل مكة على النبي وعلى اتباعه (الصابئ) و (الصباة) فصارت علماً على من تنكر لعبادة قومه . وخرج على الأصنام . وبهذا نجد الإسلام يطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام ، وهم الذين دعاهم بأنهم على (دين إبراهيم) . ولما كان التنكر للأصنام هو عقيدة الإسلام لذلك صارت مدحاً لمن أطلق الجاهليون عليهم تلك اللفظة لا ذماً . (انتهى) .

وإذا كانت الحنيفية تعني بالرأي السابق الصابئة ؛ فإن عكس الأمر لا يعني بحال أن صبأ أي تحنف أي اتبع ملة إبراهيم . وإنما الصابئ هو الذي يترك دين قومه لدين آخر . وبذلك فإن الحنيفية: هي استقلال باللفظ تعني ما جاء به سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الأساس في العقائد التي تلت بعد ذلك على لسان الأنبياء من ذريته ، فسميت اليهودية والنصرانية بمن غلب عليهم القيام بالدين والإسلام وهو ما اختار الله تعالى لعباده على لسان جميع أنبيائه . وتتكرر في القرآن مرادفة كلمة الحنيفية بالإسلام في أكثر المواقع التي وردت فيها [٣] . وعلى العموم فإن البحث

---

(١) انظر : المفصل ٤٥٢/٦ وانظر مجمع البيان : للطبرسي ٢١٥/١ والتفسير الكبير للفخر الرازي ٨٩/٤ وما بعدها .

(٢) المفصل ٦/ ٤٥٤ .

(٣) انظر البقرة ١٣٥ ، آل عمران ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ١٢٥ ، الأنعام ٧٩ ، ١٦١ ، يونس ١٠٥ ، النحل ١٢٠ – ١٢٣ ، الروم ٣٠ .

عن دين إبراهيم بعد الانحراف الكبير الذي جرى على يد عمرو بن لحي قد أوقفنا على عدد من الأسماء التي حاولت العودة إلى صفاء الحنيفية ، فلم يكن الحنفاء على رأي واحد كالذي يفهم من القول يهودي أو نصراني ، ويهود ونصارى : بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة كالذي ذهب " شيرنكر " إليه ، إنما كان أولئك الأحناف نفراً من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة . إنما اتفقت فكرتهم على رفض عبادة الأصنام ، وفي الدعوة إلى الإصلاح . وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى الحنفاء . والرجال الذين قال أهل الأخبار عنهم أنهم كانوا على دين ، وكانوا من الأحناف هم :

- قس بن ساعدة الأيادي .
- زيد بن عمرو بن نفيل .
- أمية بن أبي الصلت .
- أرباب بن رآب .
- سويد بن عامر المصطلقي .
- أسعد أبو كرب الحميري .

عمير بن جندب الجهني ـ عدي بن زيد العجاري ـ أبو قيس صرق بن أبي أنس ـ سيف بن ذي يزن ـ ورقة بن نوفل القرشي ـ عامر بن الظرب العدواني ـ عبد الطابخة بن ثعلب ابن دبرة بن قضاعة ـ علاف بن شهاب التميمي ـ الملتمس بن أمية الكناني ـ زهير بن أبي سلمي ـ خالد بن سنان العبسي ـ عبد الله القضاعي ـ عبيد بن الأبرص الأسدي ـ كعب بن لؤي بن غالب ... بعض هؤلاء مثل قس بن ساعدة ، وعثمان بن الحويرث ، وعدي بن زيد العبادي ـ نصارى ـ وبعض منهم مثل (أسعد أبو كرب الحميري ، وعبيد الأبرص ، وزهير بن أبي سلمي ، مشكوك في أمرهم لا نستطيع أن نذكر شيئا عن دينهم [1] .

إن الغالبية الكبرى من العرب كانوا على الوثنية كما سبق ، وقد أحلوا كثيراً مما حرم الله تعالى في الشرائع السابقة - الحنيفية واليهودية أو النصرانية ، بقضية التوحيد أولاً ثم بالعادات الاجتماعية ثانية . وتفشت بينهم الكثير من الخبائث مثل الزنا والقمار والسرقة ، والربا ، والزواج ، والتبني ، والخمر وأكل أموال الناس بالباطل ، وأهم هذه الخبائث الثأر الذي كان يودي بالعرب بين القتل العمد ، أو الحروب بين القبائل والتي عرفت باسم " أيام العرب " .

---

(١) انظر : المفصل ٦ / ٤٦٣ .

– وغير الأحناف (من انحرف عنهم الوثنيون والمشركون والكافرون) واليهود والنصارى ، هناك معتقدات أخرى كانت معروفة عند العرب زمن ظهور الإسلام ومن هذه المعتقدات المجوسية والصابئة :

يقصد الإخباريون بالمجوس القائلين بالأصلين : النور والظلمة : الخير والشر فيزعمون أن الخير من فعل النور وأن الشر من فعل الظلمة [1] .

وفي القرآن الكريم ذكر للمجوس ، وقد ورد ذكرهم في موضع واحد منه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** (١٧) ﴾ [الحج] وفي ذكرهم في القرآن الكريم دليل كاف على معرفة أهل الحجاز لهم ، ووقوفهم عليهم ، وكيف لا يكون لهم علم بهم ووقوف عليهم ، وقد كان لأهل مكة اتصال وثيق بالحيرة . كما كان لأهل الحجاز اتصال باليمن . وقد كان المهيمن على اليمن الفرس عند ظهور الإسلام . حيث طردوا الأحباش وأخذوا محلهم ، وقد كان هؤلاء الفرس على المجوسية ، ثم إنه كان في حضرموت وفي العربية الشرقية أناس منهم أقاموا هناك . وقد كان وكلاء الأكاسرة على هذه الأماكن منهم وهم على دين المجوسية ، ويريد الإخباريون بالمجوسية (عبادة النار) وإذا صح ما ورد في شطر بيت منسوب إلى الشاعر الجاهلي " التوأم اليشكري " المعاصر لامرئ القيس وهو " كفار مجوس تستعر استعاراً " ؛ فإنه فيه دلالة على أن هذا الشاعر هو وامرؤ القيس كانا على علم بنار المجوس ، وأنها كانت تستعر دائماً ، وربما كان على علم ببعض تعاليمها أيضاً .

وفي أخبار أهل الأخبار ما يفيد بتمجس بعض العرب ، فورد أن المزدكية والمجوسية في تميم وورد أن زرارة بن عدس وابنه (صاحب بن زرارة ، وهما من سادات تميم كانا قد اعتنقا المجوسية واعتنقها أيضاً " الأقرع بن حابس " و " أبو الأسود " جد وكيع بن حسان وقيل : إن أشتاتاً من العرب عبدت النار سرى إليها ذلك من الفرس ومن المجوس [2].

الصابئة : ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى الصابئين ، وقد ذكروا بعد اليهود والنصارى في سورة البقرة (آية ٦٢) وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة والحج . المائدة آية ٦٩ ، والحج الآية ١٧ .

---

(١) النهاية ٤/٨٥ ، اللسان ٨/٩٨ (مجس) . تاج العروس ٤/٣٤٥ مجس ، الملل والنحل (٢/٥٧) ، الحيوان (١/١٩٠) ٤/٩٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨١) ، مروج الذهب ـ المسعودي ١/٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ .

(٢) انظر : المفصل ٦ / ٦٩١ فما بعد بتصرف .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [البقرة] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] .

ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزرة (قليلة) فليس لديهم شيء مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم . وقد ربط أهل الأخبار بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن ؛ وبين صابئة حران وصابئة العراق . وجعلوهم طائفتين في الأصل . طائفة هم صابئة حنفاء وهم في نظرهم أصحاب إبراهيم عليه السلام ؛ ممن كان بحران وممن كان على دعوته وصابئة مشركون وهم من فسدوا عن الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب .

ولكن الذي يفهم من القرآن أن الصابئة جماعة كانت على دين خاص ، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى . أي أن الكلمة مصطلح ولها مدلول معين مفهوم . فما ذهب إليه المفسرون من هذا التعريف للصابئة ومن هذا التقسيم إنما تكون عندهم في الإسلام بعد وقوفهم على أصول الصابئة واتصالهم بهم .

ويفهم من المواضع التي ورد فيها ذكرهم في القرآن الكريم ، ومن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيه أنهم كانوا يعبدون إلهاً ، ويتوجهون في دينهم إليه .

ولا يستبعد أن يكون بين سكان مكة أناس كانوا من الصابئة جاءوا إليها تجاراً من العراق ، أو جاء بهم الحظ إليها ، حيث أوقعهم في سوق النخاسة فاشتراهم تجار مكة وجاءوا بهم إلى مدينتهم وعرفوا منهم أنهم صابئة .

وأطلقت قريش لفظة الصابئ والصباة على المسلمين بدلاً من تسميتهم مسلمين . فقد ذكرت كتب الحديث والسير والتفسير واللغة : أن قريشاً دعت النبي صابئاً ومن جملة من دعاه بذلك عمر قبل إسلامه أيضاً .

ولما ذهب سعد بن معاذ إلى مكة أنبه أبو جهل على قدومه إليها بعد أن دخل في دين الصابئين، ولما قدم خالد بن الوليد على بني جذيمة نادوه بأنهم صبأوا .. أي دخلوا في الإسلام ، ومعنى : أن الصابئ هو الذي يتحول من شيء إلى شيء . ويلاحظ أن الوثنيين أطلقوا هذه التسمية على كل من أسلم . وعلى كل من شكوا فيه ورأوا أنه ميال إليهم ، فكانوا يرمونه بهذه التهمة ، أما المسلمون فلم يرتاحوا لها ، والظاهر أنها كانت سبة بالنسبة لهم في ذلك العهد ، بدليل أنهم كانوا يكذبون من كان يطلقها من المشركين عليهم ، ويرد عليهم رداً شديداً ، وكان المسلمون

يفتخرون بإطلاق الحنيفية عليهم . وأنهم كانوا يرون أن الحنفاء هم سلف المسلمين . وأن إبراهيم كان حنيفياً وكان أول المسلمين . فالصابئة إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفون لهم في ديانتهم شأنهم في ذلك في نظر قريش شأن من يسميهم المسلمون في أيامنا بالملحدين أو الهدامين ؛ أو أي مصطلح آخر يراد به الرمي بالخروج على مثل المجتمع القائم وتقاليده [1] .

ظهر الإسلام في بداية القرن السابع الميلادي ٦١٠م في هذا الجو المتنوع الأديان والثقافات والتوجهات . ولكن الأغلب في مكان ظهوره " مكة المكرمة " هو غلبة الوثنية المنحرفة عن الحنيفية ؛ أي أن تحريف الحنيفية " دين إبراهيم عليه السلام " والذي نشره " إسماعيل عليه السلام " بين العرب كان هو الغالب في مكة .. وليست مكة هي كل العرب ..ولكن مكة كانت مجمع كل العرب وقبلتهم والمكان المقدس لديهم .. مع أنهم بنوا عدة معابد في كثير من الأماكن والتي عرفت " بالطواغيت " جمع طاغوت . كما أن كل قبيلة اتخذت إلهاً يتفق بعضها وأكثرها مختلف ، وتمكنت أيضاً الكثير من القبائل أن تفرض معبودها في الكعبة أو حول الكعبة ، هذا من جهة المعتقد .. أما من النواحي الاجتماعية فإن خللاً كبيراً كان في العلاقات الأسرية الصغيرة ، مثل وأد البنات ، ووراثة الأب الأكبر لأبيه من مال ومتاع وزوجات وإماء وعبيد ، والزنا المنظم تحت صاحبات الرايات ، وإلحاق أبناء الزنا بمن يطيب للحامل إلحاق مولودها به ، والجمع بين الأخوات والعمات والخالات ، وعدم وجود ضوابط للعلاقات الزوجية والأسرية ، ونظام الاستبضاع وهو أن تستبضع المرأة من رجل ذو شأن برضا زوجها ليكون للمولود موقعاً في المجتمع.. وقد عبر عنترة العبسي عن هذا بقوله :

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمفصل

أي أنه من سيد عبس " النصف " والبقية من أمة سوداء يضطر لحمايته بالسيف . وهذا التعبير الدقيق الذي كان عليه مجتمع الجاهلية . كما أن الخلل كان في جميع نواحي الحياة .

وقفنا على المعتقدات ؛ لأنها أساس رسم الخطوط الهامة لأي مجتمع من المجتمعات . ونحب أن نصل إلى ما نريده في عنوان البحث وهو أن هذا الكم الهائل من المعتقدات المتناقضة والمتحاربة وقتها ، وإن لم يكن الصدام بسبب المعتقد مثل الصدام بين العرب أيام العرب ، فكان الالتزام المبدئي كالثأر والغزو ، والتفوق والشرف والمال والماء والنخل ومناطق النفوذ ، والعصبية القبلية أسباباً محترمة جداً لمثل هذه الحروب ودمومتها ، طالما أنه لم يتحقق بها نصر واضح وفاضل ، وحتى وإن حصل من هذا النصر فإن الدم العربي يغلي لنيل الثأر ، ويؤجل بذلك كل الأمور الحياتية

---

(١) انظر : المفصل ٦ / ٧٠١ فما بعد بشيء من التصرف .

الأخرى مهما كانت قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد] .

الآيات البينات توضيح فاصل لهدف الدعوة الإسلامية لأمة وأمم خلت من قبلها ، جاءت دعوة الإسلام بالتوحيد الخالص الواضح ، الذي لا تشوبه شائبة ، أو تعكر صفوه طينة أو تربة أو أي شيء آخر . إن الله تعالى حدد إرادته أيضاً من إرسال الكتب والرسل السابقة ؛ حتى جاء القرآن الكريم ليكون الفيصل الدائم دوام الزمان . شامل شمول المكان ، مبيناً ما حصل مع السابقين الذين جاءتهم رسل الله تعالى تترى على مر الأزمان ؛ وللشعوب وكل الشعوب . فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ومنهم من انحرف ، ومنهم من ضل ، ومنهم من اهتدى . إلى أن جاء الإسلام ، ليكون الدين الخالص الخاتم على يد النبي المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

- قاوم العرب الدعوة واليهود معاً ، رضخ العرب ودخلوا في دين الله ، وصد اليهود وما زالوا صادين إلاّ من رحم ربي من الذين أشرنا إليهم في عهد النبوة ، وفي عهود تالية ، ولكن لوحظ أن العرب قد دخلوا جميعاً في دين الله وحملوه بعد ذلك إلى العالم ، وهم جيل الصحابة الذي يعتبر بحق خير الأجيال ، وأوضحها إيماناً ويقيناً وعلماً ومعرفة . أما الذين آمنوا من يهود فدخلوا في جيل الصحابة ، ومن كفر فإن كفره مازال يقوده إلى أن يشاء الله تعالى . وقد انهزم اليهود في جميع المصدات والمعارك التي حاولوا بها الصد عن دين الله . وأخزاهم الله تعالى وأجلاهم الرسول إلى شمال الجزيرة العربية . ثم طهرها منهم عمر بن الخطاب ﷺ . حيث خرجوا إلى الشام وبعضهم إلى بلاد فارس . لكن الغالب إلى بلاد الشام . ومن ثم عاشوا " كأهل كتاب " إلى أن تمكنوا في غفلة من المسلمين من العودة إلى تأسيس كيان لهم وأقاموا دولة اعتباراً من عام ١٩٤٨م – حتى اليوم – ولا يخفى على أحد من أصحاب الرأي أن هذا الكيان قائم على التأييد المطلق من أعداء الإسلام " النصارى الذين لم يدخلوا الإسلام " والهندوس والبوذيين وغيرهم . وهم تناثروا في جميع أنحاء العالم وربما يعيش في أرض الإسلام فلسطين حوالي ٤٠% من السكان اليهود في العالم ، والباقون جميعاً يعيشون خارجها يؤدون بدقة وبجميع الأساليب الممكنة الخدمات المطلوبة _ سياسياً

واقتصادياً واجتماعياً ، وعسكرياً لبقاء هؤلاء اليهود في دولتهم التي أنشؤوها بعد ثلاثة آلاف سنة من التشرد . ومع هذا فما زال بعض اليهود متناثرين بين المسلمين في البلاد العربية والإسلامية ، عموما كأقليات كريهة مرفوضة بعد أن حماهم المسلمون على مر العصور ، ومنعوا أعداءهم من إفنائهم ، خاصة في التاريخ الحديث .

إذاً الأقلية اليهودية مع دولة إسرائيل لا تتجاوز سكان مدينة من المدن العربية المتواضعة فعددهم في العالم الإسلامي لا يزيد بحال مع دولة إسرائيل عن ستة ملايين يزيدون قليلاً أو ينقصون .

– العرب دخلوا بالإسلام وحملوه إلى العالم – دخله النصارى العرب إلا من بعض الشاذين كأبي عامر الراهب ، وجبلة بن الأيهم ، والبعض الذين تركوا الجزيرة إلى بلاد الشام ، ولكن المسلمين لحقوا بهم وأخرجوا الرومان النصارى من أكثر المناطق التي تواجدوا فيها إبان حكم الإمبراطورية الرومانية . كثيرون دخلوا الإسلام وكثيرون مازالوا على دينهم . بعضهم هادن وأمن مع المسلمين ، وبعضهم ما زال ينبش الماضي ، ويتجنى على الحاضر والمستقبل . فالبربر أيضاً كانوا نصارى ودخلوا الإسلام وحملوا همه بعد ذلك ، وما زال النصارى في عالم المسلمين والعرب خاصة جالية كبيرة ، عاش النصارى مع المسلمين في وفاق تام تتداخل قراهم وبيوتهم بين المسلمين ويتقاسم الكثيرون القرى والمدن مع المسلمين ، ومع اختلاف معتقدات النصارى فإن كثيرين منهم ساهموا في بناء الدولة الإسلامية ، وكثيرين حاربوا من أجلها ، وكثيرين أيضاً ماتوا من أجلها . ومع وقفة قليلة للحروب الصليبية التي دامت حوالي مائتي عام ، القرن ١١ – ١٣م . لم يقم نصارى العالم الإسلامي بالتعاون الكبير مع الصليبيين ؛ إن لم يكن كثيرون قد دافعوا عن بلادهم ضد الهجمة الشرسة لهذه الحروب الماحقة . كما أن الاستعمار الغربي الذي دام أيضاً قريباً من قرنين من الزمن ابتداء من بداية القرن – ١٩ – وحتى نهاية القرن العشرين . حيث مازالت آثاره باقية وموجودة في أرض المسلمين . فإن النصارى ينتشرون في العالم الإسلامي ، وبين الأقليات الإسلامية في المشرق بلاد الشام والعراق ووادي النيل وشمال أفريقيا ، ويقلون في أواسط آسيا ، إذ لم تكن تلك المناطق ذات صلة بالنصرانية والإحصاءات سواء منها المعتدلة أو غير المعتدلة، والصادقة والكاذبة من حيث مصادرها التي صدرت منها فإن النصارى في العالم الإسلامي ـ مليار مسلم ـ ضمن هذا العالم عدا الأقليات الأخرى للمسلمين في الهند والصين وأوروبا وأمريكا . فإن تعداد النصارى لا يصل بحال إلى نسبة ٣ ـ ٧ % تقريباً يرتفع في بعض المناطق ويغيب تماماً في مناطق أخرى . ولكن مشكلة طرأت الآن كان الاستعمار الغربي قد درسها

بدقة ، ونفذها بدقة ، في خطوط متوازنة لإخراج هذه النسبة إلى أن تكون كبيرة في بعض البلدان، تصل إلى النصف تقريباً ـ لبنان ، السنغال ، تنزانيا .. بلدان أخرى عندما اتبع الأساليب التالية :

١- إقامة دول صغيرة أو كبيرة تحوي نسبة من النصارى عالية حتى ترتفع نسبتهم إلى حد يمكن أن يسهموا بها في إدارة البلاد ومن أعلى الرأس إلى أخمص القدم ـ إريتريا ، أوغندا ، كينيا ، بعض دول أفريقيا " الحبشة " وكذلك بعض دول آسيا وأوربا ، وهذا مكن من ظهور قوى مختلفة للنصارى حيث قام العديد منهم بتشكيل أحزاب سياسية ، وعلمانية وقومية ووطنية ليتمكنوا من قيادة الدول الممزقة التي أصبحت شرعية دولية ، وبذلك فإن هؤلاء ساهموا في مجالات التبشير والتعريف والتأليف والفكر ومنهم في الماضي .. جورج أنطونيوس ، فليب حتى ، بطرس البستاني ، ناصيف اليازجي ، وإبراهيم اليازجي ، نقولا تفلا ، جرجي زيدان ، مما كان لهم الأثر الكبير في التوجه الغربي وللثقافة الغربية التي وجدت لها مرتعاً خصباً في أرض المسلمين ، وفي السياسة بطرس غالي وأولاده في مصر ، وفارس الخوري في سوريا وجورج حبش ونايف الحواتمة وميشيل عفلق في السياسة والفكر السياسي ، وطارق عزيز في العراق وقد وصل بعضهم إلى رئاسة الدول الإسلامية مع أنه يمثل أقلية خاصة في أفريقيا ، السنغال ، وإريتريا " سياسي أفورقي " في تنزانيا ، في كثير من الدول ، حتى في كوسوفو ، ألبانيا ، البوسنة كل هذا خطي بالأقلية النصرانية إلى مصاف الحكم والإدارة كما حكموها في مجال الفكر والأدب والفن .

وعلى العموم فليس للأقلية النصرانية التي مازالت مواطنة في العالم الإسلامي والكثير منها من أصول السكان وقليل جداً جاء نتيجة التبشير والتغريب فليس لها كبير الخطر على المسلمين سوى ما أصَّلَتْ التجزئة في عالم المسلمين ، ومن باب المحافظة على مكتسباتها ، ومساواتها ، ومواطنتها ، واستمرت التجزئة وتعمقت وأصبحت واقعاً شرعياً والحديث بغيره " وحدة ، تجمع ... تعتبر خيانة للوطن والتعامل مع الأجنبي .. عمقت القضية هذه شعور الغربة للمواطن في وطنه وطرحت أفكار كثيرة لا مجال للحديث عنها في هذا المجال .

٢- حاولت الأقليات النصرانية جاهدة إبعاد الإسلام عن الحكم في عالم المسلمين ، خاصة في البلاد التي لا يزال نزيف الحرب الأهلية قائماً فيه كالسودان ، حيث وصفت الأقلية النصرانية المتنامية المدعومة بشكل كبير من دول عالم النصارى على اختلاف توجهاتهم ومداركهم ومشاربهم ومصالحهم ، وضعت الأقليات شروطها على رأسها " عدم الحكم بالإسلام " ومحاربة هذا الاتجاه بكل مجالاته وتوجهاته في الدول الممزقة في عالم المسلمين . تارة تساهم بحكم الأيديولوجيات الوافدة من الغرب على عالم المسلمين ، وتارة تشويه صورة الإسلام وتصوير استحالة عدم تمكنه

مـــن التجاوب ومسايرة الأزمنة والحضارة الغربية ، والتناقض في هذا المجال . مما حدا بجميع الدول الإسلامية (٦٤) دولة من أصغرها إلى أكبرها أن تتجاوز قضية حكم الإسلام وتجـــأر إلى أفكـــار أخرى.. شيوعية ، اشتراكية ، علمانية ، وطنية ، لا دينية لتحكم في هذه الدول مما جعـــل أمـــة الإسلام أكثر الأمم تنافراً وتباعداً وتناحرا فيما بينها ، أو مع الوسيط القائم من دول الغرب القوية لاستمرار مثل هذه الحالات الشاذة والمرفوضة .

٣- تمكن النصارى من فرض أفكار الغرب بين المسلمين ، وإيصـــالهم إلى قناعـــات فكريـــة واضحة ؛ كما تمكنوا من فرض بعض القوانين الاجتماعية والشرعية مثل محاربة التعدد والإنجاب ، وساهم الكثير من النصارى بنشر الإباحية والأفكار الوافدة بخروجهم علـــى عـــادات الإســـلام وتقاليده، مما شجع المسلمين والمسلمات على تقليدهم ، كما أنهم نشروا عاداتهم بتناول الخمـــور والمحرمات والاختلاط ، واستخدام المرأة أداة للعبث والفجور ؛ فكان لهم ذلك الأثر السيئ عندما حاربوا بقوة عادات المسلمين وتقاليدهم ومعارفهم وحدودهم الشـــرعية والعرفيـــة ، فتحولـــت مجتمعات المسلمين إلى مجتمعات تحكمها الإباحية وتحليل ما حرم الله كالربا والخمور ، والمأكولات المحرمة ، وضعوها في كثير من المآكل كدهن الخنزير ولحمه . وقد يكون هذا الأثر من أخطر الآثار التي حلت بالمسلمين فأبعدتهم عن أوامر دينهم ، وخففت عنهم عبء الحـــرام والحـــلال ، إذ أن الممارسات اليومية التي قام بها النصارى كان لها كبير الأثر في هذه التحولات الخطيرة ، وأخرجت من النفوس كثيراً من الالتزام ، وأبعدت الكثيرين عن الالتزام بالقيم والمبادئ والأعراف الإسلامية . مثل عدم زواج المسلمة من كتابي ، وإكثار التزاوج من الكتابيات ، وتحطيم قيم إسلامية كانـــت تتحكم بالمسلمين ، فاستهان بها الكثيرون فتوالد جيل لا يعرف دينه ، ولا يلتزم به إذ لم يكن قد اعتنق النصرانية أصلاً . جرى هذا في البلاد المتاخمة لأوربا ــ شمال أفريقيا عموماً ــ ودول المسلمين في أوربا ، والذين تحولوا للدراسة في عالم النصارى .. فكان الخلل الخطير في حياة المسلمين الذين تأثروا مباشرة بهذه العادات . كما أدت الممارسات هذه إلى ردة فعل عند الكثيرين مـــن الجيـــل المسلم ، حيث تحول إلى التزمت والتعصب وإعلان الحرب على هذه العادات ، حيث استفاد منها منظرو هذه الأفكار وأكثرهم من النصارى إلى دمغهم بألقاب وأسماء مهينة كان أقساها "الإرهاب" الذي تحول الآن ليكون سلاحاً اسمياً أخطر من سلاح الشرعية الدولية ، وأصبح بإمكان الـــدول ممارسته مع أي فرد أو جماعة أو مجموعة مهما كانت مقاصدها . وقطعت عنها شـــريان المـــادة لتموت ببطء نتيجة التكليف المادي الباهظ لأي عمل دعوي في الوقت الحاضـــر . عـــدا تهـــم

التخلف، والرجعية ، والتعامل مع الأجنبي ، والتعصب وكره غير المسلمين ، والانزواء والجهل والخواء الفكري .

- إن وصول الإسلام إلى عالمي الوثنية الكبيرين " البراهمية والبوذية " قد أبقى بعضاً منهم على دينهم - نتيجة لتسامح الإسلام ـ وكما أنه لم يجبر أحداً من أهل الكتاب على اعتناقه ؛ بل أظهر الثواب الذي يناله الكتابي في الدخول في الإسلام ؛ هو الذي شجع الكتابيين أن يدخلوا في دين الله فرادى وأفواجاً .. كما أن ذكر رسالة الإسلام باسمها ، وذكر نبي الإسلام باسمه في كتب أهل الكتاب - والمحرفة منها - جعل الإسلام ينتشر بين هؤلاء بكثرة على مدار التاريخ الإسلامي . تسامح الإسلام أيضاً ترك للوثنيين هامشاً من الحرية كبيراً فلم يدخلوا في الإسلام جملة ؛ لكن أكثرهم دخلوا طواعية وبدون إكراه . ولو أن بعض الحروب قد نشبت في بداية الأمر بين الوثنيين والمسلمين ، إذ أن الإسلام لا يقبل من الوثنيين إلاّ الإيمان ، فكانت حروباً طويلة بين الشعوب الوثنية التي تحولت بعد ذلك بجملتها إلى الدين .. الشعوب التركية ، الشعوب القوقازية ، الشعوب المغولية ، الصينيون ، الهنود . هذه الشعوب كانت على الوثنية ؛ فمنها من دخل بالدعوة ومنها من دخل عنوة ، وحتى عند انتصار هذه الشعوب على المسلمين كما حل بالمغول الذين تمكنوا من إبادة مساحات شاسعة جداً في آسيا من المسلمين . توقفوا في عين جالوت في فلسطين ليدخلوا في الإسلام وينشروه في الهند وأواسط آسيا . كما أن الأتراك قد وقفوا سنين طوال وأحقابا في وجه الدعوة الإسلامية ؛ ثم دخلوا في الإسلام وتحولوا إلى حماة له زهاء ثمانية قرون .. إلى أن سقطت آخر دولهم " الدولة العثمانية " عام ١٩٢٤ للميلاد في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م . وكذلك الفرس ، والهنود والصينيون ، والأفارقة ، هذه الشعوب تشكل الآن الغالبية العظمى من أمة الإسلام ، وتشير أيضاً إلى الشعب الملاوي ـ إندونيسيا ، ماليزيا ، بروناي ، ... دخلت هذه الشعوب طواعية في الإسلام في أحقاب متأخرة وحديثة جداً بالنسبة للعصر الحاضر .

هذا الوصف المستفيض لعلاقة الإسلام بالوثنية .. وصل إلى الإقرار بوجود هذه الأقليات بين المسلمين في الدول الإسلامية من جهة ؛ كما ترتفع وبشكل ملحوظ نسبة المسلمين بين هذه الشعوب بعد تشكل المجتمعات الحديثة كالصين والهند والهند الصينية ودول شرق آسيا . هذه الأقليات الدينية التي تتوازى مع الأكثريات العرقية تعيش في المجتمعات الإسلامية بمنتهى الحرية وتمارس حياتها بشكل اعتيادي .. وفي كل يوم يتحول الكثير من هذه الشعوب إلى الإسلام .

نتيجة لاحتكاك المسامين ودخول هذه الشعوب الإسلام وبقاء البعض على دينه فقد حصل أن فهم بعضاً من هذه الشعوب الإسلام على غير حقيقته .. فقد أدخلت أفكارهم مع المسلمين وتشكلت فِرَق تجمع بين ماضي هذه الشعوب ومعتقداتها وبين الإسلام ، واتخذت هذه الفئات الإسلام غطاءً لها .. مع تمسكها بمعتقداتها السابقة فنشأت فِرَق باطنية جاءت إما من الجهل وهذا الذي نحاول أن نحسن الظن به ، أو من جراء دخول هذه الشعوب الإسلام ظاهريا لتقوم بالتهديم من داخله كما فعل المنافقون العرب . ظهرت الشعوبية في فارس والهرطقات الكثيرة من المعتقدات المتداخلة " التبريرية " التي ما تزال تخفي تأثير الوثنية أو المجوسية ، والفئات الباطنية في القديم والحديث .. وكثرت هذه الدعوات في يوم من الأيام ، ووجد من المسلمين من تصدى لها .. وكشف زيفها وغيها أمثال " الإمام محمد الغزالي ، والحسن الأشعري ، والعديد من علماء الإسلام الذين تصدوا لهذه الانحرافات والبدع ، وزادوا عن الدين في وجه هذه الهرطقات والمذاهب المنحرفة ، والتي امتدت أفكارها مع ما فيها وخلطت بين معتقداتها الوثنية والإسلام ، أو حاولت الجمع بين المعتقدات المتناقضة معاً كالسيخ في الهند ، والبهائية ، والبيرلبية ، والإسماعيلية ، وبعضاً من أفكار التشيع . لقد كثرت هذه الدعوات في يوم من الأيام ولكنها انحسرت كثيراً ، وبقي بعضٌ منها الآن حيث إن الاستعمار الغربي وجد بها مطية صالحة للتعامل معها ولإبرازها ، ولتوصيلها إلى الحكم في كثير من مناطق العالم الإسلامي ؛ تحت مسمياتها نفسها " النصيريون في سوريا " وبعض الشخصيات الهامة في دول إسلامية أخرى كان لها الأثر الكبير في إبعاد الإسلام من التحكم في تلك الدول ، وما زالت تعاني دول آسيا وأفريقيا من هؤلاء الذين قفزوا إلى الحكم من خلال تطبيق المبادئ المناهضة للإسلام تحت مسميات وظلال مختلفة ، وإن لم تتمكن من حرفه نهائياً ؛ فإن هذه الشخصيات كان لها الدور البارز في تأخير فرص حكم الإسلام في الكثير من الدول الإسلامية في آسيا وأفريقيا . وكانت هذه الطوائف عقبة وشوكة في مسار أمة الإسلام ، وما زالت حتى الآن ، وتنطلق من مظلة الإسلام لتهدم أركانه ، وتشوه معتقداته ، وتحرف شعوبه، وتذل كيانه بتعاملها المكشوف مع العدو ، تعامل بعض هؤلاء في الساعات الحاسمة من تاريخ الأمة. مثل ابن العلقمي ، وناصر الدين الطوسي .. اللذين رافقا هولاكو بدخول بغداد ، وتحطيم الحضارة الإسلامية فيها التي ألقيت في نهر الدجلة – علم وعلماء ، وفكر ومفكرون – أدخل المسلمين في قرون مظلمة دامت واستمرت حتى الآن .

إن الأفكار الهندية والمجوسية والبوذية التي تأثرت بها هذه الفرق أدت في حقبة من حقب التاريخ الإسلامي إلى تسلط هذه الهرطقات وانتشارها ، وقامت لها دول وحكومات لفترات لا

بأس بها فمنها " الدولة الفاطمية " " الدولة البويهية " " الدولة القرمطية " وأدت هذه الدول إلى إضعاف الإسلام وأهله مما أطمع به أعداءه ، وقد تمت دراسة هذه الفترات بعناية من قبل المستشرقين والغربيين عموماً ، فأحيا المستشرقون فكر هذه الطوائف ، وقدموا أشخاصها على أنهم علماء ومفكرون ومبدعون .. وأحيت الدول الأوربية في حقبة الاستعمار المباشر هذه الأقليات ومكنتها من الحكم في بعض الأماكن من العالم الإسلامي .. وما تزال تمدها بالحياة والقوة والسلاح . وترى فيها عنصراً طيباً للتعاون ولتأمين الخدمات لهذه الدول في تجزئة دامت كثيراً ، ولم يتمكن المسلمون حتى الآن من لم شتاتهم ومن تجميع قواهم .

ومن التحول إلى القوة والوحدة والإبداع . ويبلغ مقدار هذه الطوائف من المسلمين مجتمعين حوالي ١٢,٧ % من مجموع المسلمين في العالم [١]. ولا يعنينا في الواقع إحصاء هذه الطوائف بقدر ما يعنينا معرفة حال الأقليات غير الإسلامية بين المسلمين .. تختلف النسبة من هذه الأديان حسب قرب البلد المسلم أو بعده عن منابت وأماكن كثرة هذه الأقليات ، فعندما يرتفع عدد البراهمة والهندوس والسيخ في بلاد المسلمين المحيطة بالهند . باكستان ، بنغلادش ، تنعدم هذه النسب تماماً كلما ابتعدنا عن أماكن تواجد هذه المعتقدات ، وفي الوقت الذي ترتفع به نسبة البوذيين في ماليزيا وبروناى وإندونيسيا .. تنعدم تماماً كلما اتجهنا غرباً ، ويتعايش هؤلاء مع المسلمين دون أن يكون هناك أية قضايا ؛ على العكس من تواجد الأقليات المسلمة في الهند أو في الصين ، أو في كمبوديا ، أو سيريلانكا ، أو الدول الأخرى ؛ حيث يعتبر المسلمون في تلك الدول من المواطنين من درجات أدنى [٢] .

إن وجود الأقليات الإسلامية في العالم ووجود غير المسلمين في العالم الإسلامي .. إنما هو تطبيق إرادة الله تعالى في الكون ؛ فليس هناك مجتمع صاف من العرق واللون والجنس والدين .. والناس كلهم خلق الله ، ومهمة المسلم في مجتمع غير مسلم أو مسلم في مجتمع مسلم إنما هو للدعوة إلى الله تعالى حسب الظروف والأحوال التي يعيشها المسلم ، وحسب الاستجابة ، والمسلم طيب ريحه ، طيب طعمه ، مصداق قول رسول الله ﷺ : " إن مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منه طائفة قبلت فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله عز وجل ناساً ، فشربوا ورعوا وسقوا

---

(١) انظر كتابنا : " مدخل لدراسة الإسلام والمذاهب المعاصرة " .

(٢) انظر من أجل ذلك مجلة المجتمع الكويتية العدد ١٤٤٦ محرم ١٤٢٢ــ ١٤ إبريل ٢٠٠١م عن محنة المسلمين في الهند (٢٠٠ مليون ربع سكان الهند ، ومحنة المسلمين في الفلبين أيضاً نسبتهم حوالي ٢٠% من سكان الفلبين .

وزرعوا وأسقوا ، وأصابت طائفة منهم أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأ ، فذلك من فقه في دين الله عز وجل ، ونفعه الله بما بعثني به ، ونفع به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله عز وجل الذي أرسلت به "[1] .

فلا ينصر الإسلام خلوه من غيره ؛ ولا ينصر المسلمين وجودهم مع غيرهم لكن نصر الإسلام بأن يكون المسلم داعية إلى الله عز وجل بالقول والفعل والسلوك ، وتجمع جماعة المسلمين بعد ذلك للزود عن الدين وعن مصالح الدنيا ، وهذا ما نفتقده الآن في حاضرنا ، فليس المسلم واعيا من نفسه ما يطلب منه ، ولا يسلس قياده لمن أخلص لله عز وجل في سره وعلنه ، فضاعت جماعة المسلمين في دول الإسلام ، وضاعت حقوق المسلمين في مجتمع غير إسلامي وإن ما يطلب الآن هو وعي المسلمين بدينهم ، والعودة إلى هذا الدين ، الذي جربت الأجيال غيره فخذلت وتخلفت ، وجربته فأعطاها الشهادة في الآخرة ولمن عاش العزة في الدنيا والآخرة .

– في هذا المجال ندخل في أمر كانت آثاره وبوادره وواقعه أكبر كثيراً من تخطيط البشر سواء منهم المسلم أو غير المسلم ألا وهو ما عرف بالمصطلح الحديث بالصحوة الإسلامية .. توقع الباحثون والدارسون والمطلعون على مجريات الأحداث انتهاء الإسلام في بداية القرن العشرين ، بعد أن تمكنت أوربا من الإجهاز على أرض المسلمين قاطبة ، وبعد أن انتهت الدولة العثمانية المرجع الوحيد الرسمي في العالم وقتها الذي كان يحمي الإسلام ويدافع عنه . وجاءت نتيجة الحرب العالمية الأولى متوجة هذا التفكير بعد هزيمة منكرة وقعت بتركيا حليفة ألمانيا في هذه الحرب ، وتمت السيطرة على جميع ممتلكاتها ، ووضعت البدائل لهذه الدولة بقيام المنتصر – وقبل أن يتم له النصر الفعلي – بتوزيع ما تبقى لهذه الدولة من ممتلكات في الشام والعراق والأناضول . وحسمت الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م الأمر لغير صالح الدولة التي تمثل شيئاً من مصالح المسلمين وحياتهم ، وخرج المسلمون مشتتين موزعين مجزئين متفرقين مغلوبين ضعفاء أمام تعنت الغرب ؛ الذي رأى أن الحروب الصليبية قد انتهت حيث برز ذلك على لسان قائدين منتصرين هما : الجنرال غورو عندما وصل قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق وقال : قم يا صلاح الدين الآن انتهت الحروب الصليبية . وقول الجنرال اللنبي الإنكليزي عند دخوله القدس تكرار مثل هذه المقولة .

---

(١) سند الحديث : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريدة بن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري . أخرجه البخاري ، ٧٩ ، ومسلم ٢٢٨٣ والنسائي والإمام أحمد في الجزء ٣٤٣/٣٢ ، مسند الإمام أحمد – مؤسسة الرسالة / ٢٠٠٠م ورواه أئمة الحديث التسعة .

وبدا للناظر أن أمر الإسلام قد انتهى ، وحسمت المعركة نهائياً لصالح الغرب المسيحي الذي لم يجد من يصده .. لا من المماليك ، ولا من غير المماليك ، بل رضخ رضوخ الجاسم الدائم فوق صدر المسلمين في كل مكان في رأي لمراد هوفمن [1] .. إن المفكرين الغربيين تداعوا وقتها لوضع ملخص عن الإسلام ــ بعد أن انتهى ــ يقدمونه للأجيال القادمة من الباحثين والمتسائلين عن هذا الإسلام و لم يعد له وجود على الأرض . وظهور بروتوكولات حكماء صهيون في الخمسينات من القرن السيئ الذكر الماضي " القرن العشرين " حمل نفس الفكرة .. أن الإسلام في طريقه للزوال .. وسيقوم اليهود بعمل اللازم لوأد الإسلام ، ودفنه وإسدال ستار من النسيان على شيء اسمه الإسلام ، ليحل محله في أرضه دولة إسرائيل متفاهمة مع الدول النصرانية لتوزيع مناطق النفوذ، وتقسيم الغنيمة ، والإجهاض على آخر من يفكر بأن يجعل من هذا الدين حجة أو قوة أو مركزاً أو مقاماً .

– وتسارعت الأحداث في القرن الماضي فدخل الغرب حرباً ثانية مع غير المسلمين هذه المرة بعد أن تمكن من تهميش دورهم بشكل مخيف وسوقهم جنوداً للحلفاء يقاتلون بهم في أي مكان مسلمو شمال أفريقيا عموماً تحرير الإلزاس واللورين التي حررها أولئك من الألمان . ولا تزال قبورهم شاهدة على ذلك في بلدة " ميلوز " قريباً من الحدود الألمانية الفرنسية في جنوب ألمانيا . وكذلك في الإلزاس شمالاً واللورين . الحرب العالمية الثانية قفزت وبدون مقدمات بالمسلمين إلى الواجهة فما أن انتهت الحرب الثانية ١٩٤٥ حتى بدأت حرب طويلة في بلاد المسلمين عرفت بحرب الاستقلال . وبدأت تظهر دول ودويلات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي تحصل على استقلالها ؛ ولو أنها جميعاً ما ذكرت الإسلام ليكون حكماً في حياتها . وبعد أن طرحت هذا الدين ليكون روح الجهاد في حروب الاستقلال . وتساقط الشهداء في جميع الأماكن ، وما تزال هذه الحرب التي مضى عليها أكثر من نصف قرن مشتعلة في أماكن كثيرة من العالم . في كشمير ، في فلسطين ، في الشيشان ، في الفلبين ، في كمبوديا ... وفي صراع موازٍ قيام الأقليات الإسلامية بالتحرك لنيل حقوقها المشروعة في التجمعات البشرية التي زجوا فيها ليعجزوا عن التحرك أو السعي للاستقلال بأقليات بسيطة مثل البوسنة ، كوسوفو ، كشمير ، الفلبين .. وغيرهم من أجزاء مستعلة في جميع أقطار العالم وخاصة ما يمكن أن يلاقي بها المسلمون دول النصارى بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م .

---

(١) مراد هوفمن : سياسي ألماني .. عمل سكرتيراً لحلف الناتو في السبعينات من القرن العشرين ، ثم سفيراً لألمانيا في كل من المغرب والجزائر .. أسلم وتزوج بمسلمة تركية ، ويقيم معها الآن في استنبول ، كتب في كثير من مشكلات المسلمين ومنها كتابه " الإسلام عام ٢٠٠٠ " يحسن الرجوع إليه .

جميع الذين وصلوا إلى الحكم في عالم المسلمين بعد حروب الاستقلال تبنوا الأيدلوجيات الغربية " الاشتراكية ، الشيوعية ، القومية الوطنية ، العلمانية ، الإلحاد " و لم يجرؤ واحد منهم على الادعاء بأنه وريث أمة الإسلام .. وساءت الأمور في اتجاه معاكس ، إذ أن مهمة حمل هم الإسلام تحول إلى الحركات الإسلامية وإلى الدعاة المسلمين أفراداً وجماعات . وسرت في جسد الأمة ـ نتيجة خيبة الأمل بكل الأيدلوجيات المطروحة ـ سرت ظاهرة العودة إلى الدين لاستلهام الحلول للمشاكل المستعصية التي خلفها الاستعمار وعملاؤه ، والراضين بما قدم للأمة من مبادئ وآراء .

ووجد الناس أن الإسلام هو الفيصل الوحيد ، والأمل المرجو في أن يكون منقذاً للأمة من التردي الذي وصلت إليه . كما أن فريقاً من المسلمين وجدوا أن سبب التردي هو تخلف الدولة العثمانية في أواخر أيامها عن مواكبة العصر ، وهي التي تتحدث باسم الإسلام وتدافع عنه ، وتعيش على هامش الحياة العصرية التي وصلتها أوربا .. لذلك ومن هذا المنطلق وصل كمال أتاتورك إلى سدة الحكم في لعبة سياسية قذرة ، وصب جام غضبه على الإسلام وليس على مواطنيه القائمين على الحكم في الدولة العثمانية ، ثم حكومة الاتحاد والترقي . وكانت غضبته على كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ، هو السبب الذي حدا بالكثيرين التمسك بالإسلام وتوضيح فكرة أن تخلف العثمانيين – إن كان – ليس هو الإسلام ، بل هو عقلية الناس الذين يحكمون . على الرغم من أنه ثبت بالدليل القاطع تآمر المتأخرين وثبات الأولين على القضايا المصيرية للأمة ومعتقداتها ومقدساتها التي يتنازع عليها المسلمون وأعداؤهم دون وعي ودون فهم .

إن ردة فعل حصلت في الأجيال المتلاحقة عند المسلمين ، سواء أكانت من ردود الفعل ، أم من الممارسات التي مارستها الدول المتعددة التي أقامها الاستعمار قبل رحيله عن بلادنا ، والتخلف الكبير في مرتكزات الحياة المطلوبة من أية أمة من الأمم ليكون لها كيان ومبدأ ، ومعتقدات ومقدسات ، وماضي ، وحاضر ، وهدف ومستقبل .. إذ أن الحكومات جميعاً فقدت كل هذه المقومات ، وركزت على عبادة الحاكم ، وتأليه الحاكم ، والتغاضي عن كل المهازل والزلات والهزائم التي جرها إلينا حكام العرب والمسلمين ، والذين لم يحققوا نصراً حقيقياً واحداً ، ثم إن قيام الحركات الإسلامية المتعددة كان لها الأثر الكبير في تحول المسلمين إلى الإسلام ، واستلهام كل المقومات المطلوبة منه والعودة إلى الله تعالى .. ولعل مفكري جماعة الإخوان المسلمين وهذا اعتراف بالحق لأهل الفضل كان لهم ومن آزرهم من المسلمين الآخرين الفضل الأول في توجيه هذه الأجيال ، وتقديم أنفسهم شهداء في بلادهم ، هم ومن وازاهم لهذا الدين ، ولذا فإن هذه الحركة

من دون الحركات الأخرى الكبرى والصغرى كان لها الفضل الأول في إحياء تراث الإسلام ، والتصدي لكل التحديات التي جاء بها الغرب ليحارب الإسلام .

كما أن قيام بعض المؤسسات التربوية التي شدت إليها الشباب والشابات شداً ؛ حولهم في حقبة قصيرة إلى جنود مخلصين لهذا الدين .. بدأت بذلك ما عرف بالمصطلح الديني الآن بـ "الصحوة " والصحوة اختصاراً هي عودة الأجيال إلى الإسلام ، وازدياد الثقافة الإسلامية بين المسلمين ، وكذلك الدعوة الصادقة للدعاة في البلاد العربية والإسلامية أدى إلى اكتساح كبير لكل المجتمعات الإسلامية .. مما حدا بالحكام ودعاة التغريب إلى شن حروب مدمرة تجاه الحركات ؛ وأكثرها اتهم بالإرهاب والتخريب .. وتقوم اليوم الولايات المتحدة بالتحضير لأكبر عملية عسكرية في تاريخ العسكرية الحديثة لضرب الإسلام وإرهاب المسلمين .. هذه العودة إلى الدين بعيداً عن التحديات لامست الأجيال العربية والإسلامية ابتداء من منتصف القرن الماضي (القرن العشرين) وأظهرت الصحوة شمولها ووعيها في أماكن كثيرة ، وتعثرت في أماكن أخرى .. لكنها على العموم جعلت " حلف الناتو " [1] .. كما يقول مراد هوفمان ثانية في كتابه الإسلام عام ٢٠٠٠ أن جنرالات حلف الناتو يخططون للوقوف في وجه الصحوة الإسلامية .

والصورة الآن ونحن نخط هذه الأسطر ، وبعد حوادث ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن ؛ والتي اتهم بها الأصوليون المسلمون العالم كله من مشرقه إلى مغربه يخطط ويتوعد ويجند الجيوش والقرارات الدولية ، والرأي العام الغربي والعالمي عموماً ، في محاولة للرد على أكبر عملية في أمريكا منذ إنشائها . أدت العملية إلى جرح كبرياء الولايات المتحدة ، وتحطيم عنفوانها ، وضرب اقتصادها ، وتحويل الكثير من مجريات حياتها .. وذلك للتصدي لبعض جوانب الصحوة الإسلامية. وفعلاً لم يقتصر الأمر على الأمريكان ؛ بل انضم لهم حلف الناتو بكل قواته وخبراته العسكرية والسياسية والاقتصادية .

وكذلك فتات الاتحاد السوفيتي من دول إسلامية ، ولم تتخل روسيا عن لعب الدور المطلوب منها في ذلك ، وكذلك الكثير من الدول العربية والإسلامية ، كل هذا من أجل عقل رجل واحد مطلوب لعدالة .. !! الولايات المتحدة " اسمه " أسامة بن لادن " هاجر إلى الله بنفسه وماله وأهله، ويعيش عيشة الكفاف ، وعيشة التقشف ويملك مليارات الدولارات .

---

(١) حلف الناتو : هو حلف عسكري هجومي دفاعي يشمل جميع الدول في أوربا الغربية وأمريكا وانضمت له الآن بعض دول المعسكر الشرقي السابق الذي كان يجمعه " حلف وارسو " والذي انتهى وسقط بسقوط الاتحاد السوفيتي .. ويعتبر حلف الناتو القوة الضاربة الثانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية .

العالم المحموم الآن كله جيوشه ، شعوبه ، إعلامه ، اقتصاده ، ثقافته كلها تلهث للوصول إلى هذا الرجل الذي اعتبر العقل المدبر لما حصل في داخل الولايات المتحدة . وهذا الرجل سبقه آخرون في الشيشان ، وكوسوفو ، والبوسنة ، والفلبين ، وفلسطين التي أفرزت الكثير من رجال الصحوة الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، وحققوا بحجارهم وفدائييهم الكرامة لهذه الأمة التي أهانها حلف الناتو ، والولايات المتحدة ، وإسرائيل ، وغير هؤلاء من أعداء الإسلام .

الصحوة الإسلامية غيرت المفاهيم كلها مهما ظهرت ، وبرز الأصوليون منها في اصطلاح جديد عرف بالإرهاب " حيث يجتمع العالم ويتدارس ويخطط لاجتثاث هذا الإرهاب في أي وقت؛ وفي أي زمان وفي أي مكان ، وعلى أي أرض في الجبال أو السهول والبحار وكل مكان يتواجد به مسلمون .

الإرهاب الذي مارسته وتمارسه دول الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة عرفوه بالحضارة والثقافة والخير . ومحاولة البعض وليس الكل في عالم المسلمين محاولة إثبات الذات ، ومحاولة رد الاعتداءات التي مورست على جميع المسلمين ومن مختلف الاتجاهات ، وعلى جميع الأصعدة يسمى إرهاباً .

قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ** (٦٠) ﴾ [الأنفال].

الصحوة الإسلامية سيرت روح التدين بين المسلمين على اختلاف أعمارهم وأجناسهم وأحوالهم ، وأصبح الإسلام في نفوس المسلمين القناعة التي لا توازيها قناعة بأنه هو فقط المؤهل ليس فقط لرفع شأن المسلمين وتوحيدهم وتحقيق النصر لهم ، بل تعدى ذلك إلى أن الإسلام هو المنقذ الوحيد للعالم المادي الذي قضى القرن العشرين كله في اقتتال ، وفي ظلم القوي للضعيف ، وفي انتهاك حرمات الله ، وفي سرقة الكثير من القيم والاعتبارات والأموال والأملاك والأوطان ، والذات فالإسلام هو القناعة التي سرت في نفوس الملايين بل مئات الملايين من المسلمين .

وأصبح القرآن الكريم الكتاب الحق الوحيد في العالم الذي يمكن له أن يغير ما لم تتمكن كل الثقافات من تغييره في نفوس الناس ، وأصبح القرآن الكريم الكتاب الأكثر تداولاً في العالم الآن بذاته بين مسلمي اللغة العربية ، وبترجمات معانيه التي وصلت إلى ما يزيد عن ثمانين لغة في العالم وانبثق عن القرآن انتشار العلوم المرتبطة به كالتفسير والتجويد والبلاغة والإعراب والعلوم والإعجاز .. وكل ما له علاقة بكتاب الله تعالى . وكذلك توسع الفكر الإسلامي من الحديث

والفقه والتاريخ وغير ذلك من العلوم الإسلامية المتنامية . وغدت الثقافة الإسلامية الواحدة بين ثقافات العالم تحكي الحقيقة ، وتدافع عن القيم الإنسانية ، وتصور النفس البشرية المؤمنة ، وتسقط الهرطقات والفلسفات التي راجت يوماً بين المسلمين وغيرهم من الناس ، ونمت الثقافة الإسلامية ، وأصبحت محوراً للتدارس والتداول ليس بين علماء المسلمين وعامتهم ؛ ولكن بين علماء النصرانية وعامتهم .

وانتشر الإسلام نتيجة هذه الصحوة انتشاراً واسعاً وتخطى حصوناً ومواقع كانت إلى وقت قريب محرمة عليه . وكانت تمنع أن يمتد هذا الدين إلى تلك الشعوب التي تحصنت وراء ثقافات ـ جلها إن لم يكن كلها ـ تعادي الإسلام وتتغذى على معانيه ومراجعه واتجاهاته . لقد تحقق قول الله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)** ﴾ [النصر] .

في نهاية القرن العشرين كان من مكائد اليهود والصليبيين أن الإسلام ينتهي تماماً كما رأوا نهايته في بداية القرن .. وأعدت العدة للإجهاض عليه نهائياً في أوربا أولاً - كل الأقاليم الإسلامية ألبانيا ، البوسنة ، كوسوفو ، مقدونيا ، تركيا ، دول البلقان - وبعد أن تمكن قادة المسلمين من القضاء عليه في بلادهم طوال القرن الماضي . وهناك تحول كبير بعد ١١ سبتمبر " أيلول" (٢٠٠١) ننتظر نتائجه .. لكن البوادر نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين .